مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الأحزاب

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد القرآن الزكية

سورة الأحزاب

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الأحزاب

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾

ابتدأت سورة الأحزاب بمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بالنبوة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ خاطب الله تعالى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالمداومة على تقوى الله تعالى، لأن تقوى الله تعالى رأس كل فضيلة، وأن يواظب على عدم طاعة وموافقة الكافرين والمنافقين، وملاينتهم بالمطاوعة لهم. ثم علل سبحانه وتعالى النهي، ببيان عظيم علمه عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فإن الله تعالى عليم بما كان وبما يكون ويجري، وأنه جَلَّ جلاله حكيم فيما يأمر به وينهى عنه. فإن أمره ونهيه عن علم وحكمة، مما يستوجب الأخذ والتمسك به.

وفي تخصيص الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، ما يفيد التعظيم لِمَا وَعَظَ به سبحانه وتعالى، ليكون تعليماً للأمة بأن يتخذوه منهجاً في حياتها وتعاملاتهم مع الكفار والمنافقين. فإذا كان الله تعالى خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بالأمر بالتقوى، وبهذا النهي، وهو النبي، وسيد ولد آدم، والمطيع لربه عَزَّ وجل، فإن أمته أحوج ما يكون لهذا التوجيه الكريم، فارتفع به مستوى التوجيه والخطاب بالأمر بالتقوى، والنهي عن عدم طاعة الكافرين والمنافقين إلى أعلى مستوى درجات التوجيه. ثم نَبَّهَ تبارك وتعالى بأهمية ما أمر به ونهى

عنه، من خلال بيان أن من أمر به ﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو العليم الحكيم، فإن ربكم سبحانه وتعالى عليم بما كان وما يكون وما سيكون من عباده، وأنه حكيم فيما يأمركم به، وينهاكم عنه.

وابتدأ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بياء النداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ لإفادة شد الانتباه، لِمَا نُودي له من التوجيه الكريم، بما يفيد: أرع سمعك وانتبه لمضمون خطابي أيها النبي، وما تضمنه من الأمر والنهي. وفيه تنبيه للأمة، بأن التنبيه للرسول صلى الله عليه وسلم هو ذاته تنبيه للأمة، وشد انتباهها لهذا النداء العظيم من خلال شخص النبي عليه الصلاة والسلام، ليعلوا في نفوسهم مضمونه وأهميته، فهو نداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، وأخذه بعزم وأهمية وجدية. وقد نُودي النبي صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه وتعالى في هذه السورة خمس مرات لأغراض مختلفة.

ثم بعد النداء أورد سبحانه وتعالى تسمية الْمُنَادى بمنزلة ودرجة النبوة الرفيعة العظيمة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ تكريماً له بمكانته السامية، وتشريفاً لمقامه صلى الله عليه وسلم، وتنويها لغيره بفضله صلى الله عليه وسلم، وأنه نبي من ربكم أيها الناس. فإذا كان الله تعالى يخاطبه بالنبوة فإن واجبكم كذلك، مع زيادة التوقير والاحترام له عليه الصلاة والسلام، سواء في القلوب أو المناداة، والخطاب، أو غيره من مستلزمات التوقير. وليتعلم الناس كيف يخاطبون نبيهم ورسولهم صلى الله عليه وسلم، وهو الشأن الذي كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، ومن تبعهم، فإنهم كانوا لا يقولون إلا: يا رسول الله، يا نبي الله، وجاء نبي الله، وقال رسول الله. وأيضاً قال الذين من بعدهم حكاية عنه صلى الله عليه وسلم: كان رسول الله، وقال نبي الله صلى الله عليه وسلم.

وبهذا الخطاب من الله تعالى أفاد أن مرتبة الرسالة والنبوة هما أعلى رتبة منحها الله تعالى لمن اصطفاهم، فلم يخاطبه الله تعالى في كتابه القرآن العظيم برتبة من الرتب، إلا برتبة الرسالة والنبوة، وأما بغير هاتين الرتبتين فينوه عَزَّ وجل عنه باسمه صلى الله عليه وسلم على سبيل الإخبار، لا النداء والخطاب، كما ورد في سورة آل عمران، وسورة الأحزاب، وسورة محمد، وسورة الفتح. لمناسبة المقام لذلك، ففي سورة آل عمران قوله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ وفي سورة الأحزاب قوله تعالى ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ وفي سورة محمد قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ وفي سورة الفتح قوله تعالى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ

عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ وفي جميع ذلك كانت على سبيل الإخبار به، وليس نداء وخطاباً مباشراً له صلى الله عليه وسلم

ثم يأمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة بالمواظبة على التزام التقوى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ يا أيها النبي الزم ما أنت عليه من التقوى، بالمداومة عليها، وازدد منها، وأكثر مما أنت فيه، لأن تقوى الله تعالى رأس كل فضيلة. قال طَلَقُ بن حبيب رحمه الله تعالى: التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجوا ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله[١] فهي رأس كل طاعة، ورأس كل امتثال ومواظبة على التزام طاعة الله تعالى.

ثم ينهى سبحانه وتعالى عن طاعة الكافرين والمنافقين ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَـٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَ ﴾ الذين يطلبون منك ملاينتهم فيما يريدون، فلا تقبل منهم رأياً، كقولهم: اطرد عنك أتباعك، من ضعفاء المؤمنين حتى نجالسك. وبأن لا يذكر اللات والعزى بسوء، وغير ذلك مما يطلبون. وفي هذا إفادة وبيان بتعارض طاعة الكافرين والمنافقين مع طاعة الله تعالى، فإنهم يناقضون طاعة الله تعالى، وما يأمر به، وما ينهى عنه عَزَّ وجل. كما أن في هذا تعريف بهم، وتشهير لهم، بأنهم مناقضون لله تعالى في كل شيء.

وصنفهم الله تعالى إلى صنفين: صنف ﴿ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴾ وهم الذين يعلنون عدم الطاعة والاتباع للرسول صلى الله عليه وسلم، وعدم التصديق والإيمان، فهم الجاحدون لرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكتاب الله القرآن الكريم. والصنف الثاني: هم ﴿ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَ ﴾ الذين يُظهرون الإسلام ويبطنون خلافه. وبالرغم من أن المنافقين لا يُظهرون الكفر إلا أن أحوالهم تَظهَرُ من تصرفاتهم بأنهم أهل كفر، كما أن في تعيينهم ما يفيد معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم بهم، فرداً فرداً. ولإفادة المؤمنين بأن لا يطيعوا الكافرين الظاهرين بكفرهم، ولا يطيعوا من تَظْهَر عليهم علامات النفاق، والتي لا بد لها من الظهور في بعض المواقف، فيكشفهم الله تعالى بما يُظهرونه من تصرفات النفاق ودلالاته. فيجب الحذر منهم. وقد ذكر الله تعالى أوصافهم في كتابه القرآن العظيم، ومن ذلك ما ورد عنهم في سورة المنافقون، وفي غيرها من سور القرآن العظيم. مما يفيد الحذر منهم.

كما أن في نهي الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم عنهم، وهو الذي ينزل عليه الوحي بهم وبشأنهم، بما يكشف حقيقتهم، ويجعلهم لا يَخْفَوْن عليه، فإنه بهذا الإعلام والتوجيه الكريم من الله تعالى ما يعطي توجيهاً وتحذيراً للمؤمنين في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، بأن عليهم الحذر منهم، والامتثال لما نهى الله تعالى

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٧٤/٣)

عنه رسوله صلى الله عليه وسلم. ليتبين لهم عظيم شأن النهي، فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد نهاه ربه عَزَّ وجل عنهم، وهو الذي ينزل عليه الوحي فإنه في حق المؤمنين أوجب، وأن عليهم الحذر والتحوط منهم.

ثم يختم الله تعالى الآية الكريمة ببيان ما يستوجب الأخذ والالتزام بما أمر به، ونهى عنه، حيث علل سبحانه وتعالى النهي، ببيان عظيم عن عِلْمِه وحكمته عَزَّ وجَل. فإن الله تعالى عليم بما كان ويكون ويجري، وحكيم فيما يأمر به وينهى عنه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فإنه سبحانه وتعالى عليم بما كان، وبما يكون ويجري، وما سيكون ويحدث قبل أن يحدث، وكذلك حكيم فيما يأمر به وينهى عنه. فأمره ونهيه عَزَّ وجل هو عن علم وعن حكمة، مما يستوجب منكم لزوم أمره ونهيه سبحانه وتعالى. وقد تضمن ذلك التقرير بأنه سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء، فقد ورد العليم والحكيم ﴿ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ بصيغة المبالغة التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله. كما تقدم البيان حرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ لإفادة توكيد وتأكيد ما بعدها من البيان، كما ورد قوله تعالى ﴿ كَانَ ﴾ بما يفيد: أن الله تعالى عليم حكيم منذ الأزل، فهما صفتان عظيمتنا جليلتان لله عَزَّ في علاه.

ويتتابع التوجيه الكريم من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ يأمر الله تعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بما يلزم القيام به، وبما يكون عليه في مسيرته الدعوية، فإن مما يجب أن تقوم به أيها النبي هو اتباع ما يُوحى إليك من ربك سبحانه وتعالى ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ فتمسك بما أنزله وأوحاه ربك عَزَّ وجل إليك، مؤكداً ذلك بقوله جَلَّ جلاله ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ فهو من ربك عَزَّ وجل، بما يفيد تعظيم منزلة ما أُنزل إليك، فإنه مما لا يُفَرَّطُ فيه أبداً، وبما يفيد وجوب الملازمة والمتابعة لما أَوحَى اللهُ تعالى إليك من الكتاب والسنة، والصبر على اتباع ما ورد من الوحي إليك، وتبليغه للناس، والاستمرار على ذلك.

وفي دلالة كونه ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ ما يفيد أنه يكفيك ويغنيك عن غيره. بما يُعَلِّم الأمةَ المسلمة أن تلزم ما جاء من الوحي على رسولها صلى الله عليه وسلم، وهو الكتاب والسنة، وبأن لا تلتفت لغيره، لأن المؤمنون تبع لرسولهم صلى الله عليه وسلم في هديه، وفي الاقتداء والتأسي به صلى الله عليه وسلم، ومتابعته في جميع شؤونهم.

ثم يخبر الله تعالى بما يعزز التمسك بالوحي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فإن الله تعالى خبير بكم، وبالتالي خبير بما يصلح لكم، ويأمركم به. فالذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم، هو الذي فيه

المعالجة لما تريدون، وهو الذي ينصلح به حالكم. فأنزل عليكم ما هو أعلم به منكم لكم، من الصلاح والفلاح. فهو مع علمه خبير بكل شيء، ومن ذلك خبير بكم. فأفادت دلالة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ دقة العلم بهم، فإنه يعلم شأنهم على حقيقتهم، أكثر من علمهم بأنفسهم، كما أنه خبير بما يكون ويحصل منهم، سواء كان من جهل أو نسيان أو تعمد، فإنه سبحانه وتعالى يدرك حقيقة ما يكون من العباد من كل وجه، فهو الخبير بسرائر عباده، وضمائر قلوبهم، ودواعي أعمالهم وأقوالهم ومقاصدهم منها وبها، فيحفظها عليهم سبحانه وتعالى. وخص سبحانه وتعالى أنه خبير بأعمال عباده؛ باعتبار معالجة الاتّبَاع، ومعالجة ما يخص النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه المنكرين له ولرسالته، وليكون بياناً لكل عباده المذنبين بكفرهم، والمنافقين بسوء طويتهم ومنهجهم، وتحذير وتهديد لهم. وأما في شأن المؤمنين فيكون التحذير من الذنوب والمعاصي، والبشارة لهم بعلمه الدقيق لمن أطاع، فيثيبه بما يستحق من الأجر العظيم. فيا أيها الناس إن الله تعالى بكل ما يكون منكم عليم به، فلا تخفى عليه خافية منكم، ما ظهر وما بطن منكم. لتشمل السرائر والنوايا، وما يتحدث به القلب، ولم ينطق به اللسان. مما يفيد احذروا من سيء الأعمال، وعليكم بأطيب الأعمال فإنها لا تخفى على ربكم جَلَّ جلاله.

والخبير في قوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾: هو إحاطة علمه سبحانه وتعالى بظواهر الأشياء وبواطنها. وعالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فإنه يحصي عليكم دقائق أعمالكم، فلا يفوت منها شيء، من خير أو شر، وأنكم محاسبون ومجزيون على ذلك. ففي ذلك ترغيب في عمل الصالحات مهما صغرت، وترهيب من المعاصي مهما خفيت وصغرت. والفعل ﴿ كَانَ ﴾ فعل ماض، مفاده أن صفة الخبير صفة ثابتة لله تعالى، وليست حادثة لما وقع منهم، وخاصة بهم. بل إنها صفة من صفاته الكريمة. فالحمد لله رب العالمين على مغفرته ورحمته وفضله وهدايته.

بل إنها قاعدة تربي المؤمن على الاستقامة، فإن منعته نفسه أو مانع عن فعل خيرو هو قادر عليه، ذَكَّرَها بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ وإن استهواه أمر حرام قال لنفسه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ وإن أراد غيره حراماً، ذكره بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ وإن أراد غيره الامتناع عن خير مقدور عليه، دفعه وحفزه بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ فمن صاحب هذا العلم في حياته صاحبه الخير، ومنعه عن الشر والفساد، مما يبين نعمة القرآن العظيم في كل شأن من شؤون الإنسان. فالحمد والشكر لله العلي العظيم.

ويتتابع التوجيه الكريم من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأهم الركائز التي يقوم عليها الدين، وتقوم عليها الدعوة إلى الله تعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ اعتمد على

الله سبحانه وتعالى أيها النبي، فإنه يكفيك في جميع شأنك، فهذا توجيه من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبع له، بأن أهم ركيزة من ركائز الإيمان في النجاح والتفوق هي ركيزة التوكل على الله تعالى ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ اعتمد واستند على الله تعالى، وفوض أمورك له بعد الأخذ بالأسباب التي أمرت بها، وشرعها الله تعالى في دينه الحنيف، فإن ربك هو الذي يكفيك فيما اعتمدت عليه فيه، فيقضي عنك، ويدفع عنك ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ وكفى به عَزَّ وجل حافظاً يحفظ من توكل عليه. فيكفيك حافظاً لك، بما يجعلك مستغنياً عن كل شيء في الكفاية. فهو سبحانه وتعالى الكافي والمعين، لأن الوكيل هو الذي يكفي من وَكَّلَهُ الشأن والأمر، فكيف إذا كان الله تعالى هو الوكيل الذي يتولى شأن من توكل عليه، فيدفع عنه الضر، وما يخافه ويخشاه، وييسر ويحقق له ما يطلبه ويتمناه. وهو توجيه لكل مؤمن بأن يتوكل على الله سبحانه وتعالى.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى معالجة قضية وظاهرة اجتماعية حاصلة بين الناس، وقد اشتدت الحاجة إلى معالجتها، فيعالجها سبحانه وتعالى بمقدمة غاية في الحجة والإقناع. فيقول عَزَّ وجل ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ فيقرر سبحانه وتعالى لعباده عدم تحقق الجمع بين شيئين مختلفين ومتضادين تماماً في وقت واحد، سواء في مهمتها أو في علاقتها، أو في نوع صلتها. وقد بدأت المعالجة الكريمة من الله تعالى لهذه لقضية ببيان حقيقة من حقائق الإنسان في خلقه وتكوينه، وهي ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ ما جعل، وما خلق الله لرجل من قلبين في جوفه، فنفى أن يكون في جوف الإنسان قلبين، وإنما حصرهما في قلب واحد فقط. وخص الرجل من بين جنس الإنسان باعتباره المعني بهذه القضية، وليست هي المرأة، وفي هذا دقة في الخطاب. كما خص القلب من بين بقية الأعضاء المنفردة والمفردة في الجسم، لعلاقته بموضوع الظِّهَار، لأنه هو محطة ومركز التعاطف، من الحب والبغض والكره، ودرجاتها. وهذا من الإعجاز في البيان، الذي اختار وخص به العضو الذي هو منبع الصلة في موضوع المعالجة للقضية والظاهرة الباطلة في أقوال بعض الرجال.

وكما أنه ليس للرجل من قلبين في جوفه فكذلك لم يجعل المرأة تجمع بين الأمومة للزوج، وبين كونها زوجة له. فيتعذر ويمتنع أن تكون زوجة، وأن تكون أماً للزوج في وقت وآن واحد ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ فما جعل أزواجكم اللاتي تقولون لهن: أنت عليَّ كظهر أمي، أمهات لكم. فما جعل نساءكم اللائي تقولون لهن هذا في التحريم كأمهاتكم، فإنه منكر وزور. بما يفيد أنكم كذبتم بهذا القول. فإنه

يستحيل ورود المشابهة في ذلك، بل ما يطلبه الرجل من زوجته لا يطلبه من أمه. قال الطبري رحمه الله تعالى: بل جعل ذلك من قيلكم كذبا، وألزمكم عقوبة لكم كفارة. قال قتادة رحمه الله تعالى: ما جعلها أمك. فإذا ظاهر الرجل من امرأته، فإن الله تعالى لم يجعلها أمَّه، ولكن جعل فيها الكفارة(١) وفي هذا تأديب، وبيان لحق الأم، ومنعاً من التشبيه، الذي لا يليق بمقام الأم. وجعل لذلك كفارة، ذكرها سبحانه وتعالى في سورة المجادلة. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: ما جمع الله قلبين في جوف، ولا زوجة وأمومة في امرأة، ولا بنوة ودعوة في رجل. والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى كما لم ير في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين، لأنه لا يخلوا، إما أن يفعل بأحدهما مثلما يفعل بالآخر من أفعال القلوب، فأحدهما فضلة، غير محتاج إليها، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك، فذلك يؤدي إلى اتصاف الجملة بكونه مريداً كارهاً، عالماً ظاناً، موقناً شاكاً في حالة واحدة. لم ير أيضاً سبحانه وتعالى أن تكون المرأة الواحدة أمّاً لرجل زوجاً له، لأن الأم مخدومة، مخفوض لها جناح الذل، والزوجة مستخدمة، مُتصرف فيها بالاستفراش وغيره(٢) فهما أمران لا يجتمعان. وفي هذا الأسلوب من تقريب الصورة بانفراد القلب، وانتفاء القلبين في الجوف الواحد، ما يستثير الذهن إلى الحقائق، وإدراكها إدراكاً حقيقياً، ليكتشف به الإنسان خطأ ما كان منه، وصواب ما وُجِّه له من ربه تبارك وتعالى. كما أنه أسلوب يُعلم المربي والداعية والموجه، والمرشد، كيف يبني الحقائق، ويقربها للمتلقي بأحسن ما يكون من التوجيه والتعليم. فهو بيان عظيم في تقريب وإعطاء لصورة بكل وضوح.

ثم عالج سبحانه وتعالى قضية التَّبَنِّي، بأن يجعل الرجل من يتبناه من الغرباء كالابن المولود له من زوجته، فينسبه لنفسه، ويدعوه الناس له، ويرث ميراثه. ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ وكما هو ممتنع أن يكون في جوف الإنسان قلبين، أحدهما يتولى محبة الابن من صلبه، وأحدهما يتولى محبة من يتبنى تربيته ورعايته، فكذلك يمتنع أن يكون الرجل الخارجي الذي ليس من صلبه كالولد الذي من صلبه في الحقوق. وما يترتب عليه من البر، وما يلحقه من إثم التفريط في البر. فينفي سبحانه وتعالى تشريع الجاهلية الذي يتنافى مع الحقائق والحق. ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ ﴾ أي: الذين تتبنونهم ﴿أَبْنَآءَكُمْ ﴾ كالابن من النسب.

فإن الخالق تبارك وتعالى لم يحكم لكم بأن تجعلوا من تتبنون رعايتهم من غير أولادكم في منزلة الأبناء. ثم يؤكد تبارك وتعالى أن هذا الشأن هو شأنكم الذي تقولونه بألسنتكم ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ هذا هو قولكم الذي تقولون به لأبناء غيركم، بأن تَدَّعُون زوراً وبهتاناً أنهم أبناء لكم بالتبني. قال الزمخشري رحمه الله تعالى:

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٩-١٠)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٣/٥١٧)

لأن البنوة أصالة في النسب، وعراقة فيه، والدعوة: إلصاق عارض بالتسمية لا غير، ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل[١] فالتبني ادعاء يخالف الحقيقة، وهذا الدين هو دين الحقائق، وليس الكذب والتزوير والادعاء الباطل.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأنه يمنع ادعاء الكذب، وتحويله إلى حقيقة ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ فإن الله عَزَّ وجل يقول ويقرر الحق، ويُبطل الباطل ﴿ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ وهو الذي يهدي بتشريعه وأحكامه إلى السبيل الصحيح، والطريق والمنهج القويم. مما يبين أن دين الله تعالى قائم على الحقائق، ويمنع التزوير، ويمنع قلب الحقائق، وجعلها على غير حقيقتها. مما يعلم أتباعه الصدق، والعدل، ومنع التزوير في كل شيء.

ثم بعد المعالجة المقنعة لمن هو على تصور وفهم خاطئ، يتوجه البيان الكريم من الرحمن الرحيم إلى منهج التصويب الحكيم لهذا الأمر. فيقول تبارك وتعالى ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فيعالج سبحانه وتعالى هذا الأمر بالحلول الصحيحة، مع معالجة الاحتمالات المتوقعة، ليستوفي تسديد جميع الأبواب، بل وتمتد المعالجة إلى الصفح عمن وقع منه هذا الأمر خطأً، وليس عمداً.

فبدأت المعالجة بإعادة الأمر إلى حقيقته، بأن على من قام برعاية شخص ليس من صلبه أن يدعوه لأبيه الحقيقي ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ أنسبوهم لآبائهم، الذين هم من أصلابهم، ولا تدعوهم إلى غيره، ففي التوجيه حصر بأن يُنْسَبُونَ إلى أصلابهم، وهم الأبوين الحقيقين. ثم يبين سبحانه وتعالى سبب وعلة هذا التوجيه الكريم، بأن هذا الفعل عند الله تعالى هو الفعل العدل ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ هو أعدل وأصوب وأصدق عند الله تعالى، بأن تدعوا الأبناء لآبائهم، وهو أعدل كل قول وحكم في هذا الشأن، فليس هناك أعدل منه أبداً.

ومن دقائق البيان أنه لم يضيف إلى النص الكريم المفضول ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فلم يذكره ليستوعب كل حكم، فهو أقسط عند الله تعالى من كل حكم، ومن كل رأي، فليس هناك أقسط من ذلك وأعدل منه. وبما يفيد أن غيره من الأحكام والآراء هو جَور وتعدي وبهتان وكذب، لا عدل فيه البتة. فإن في

(١) المرجع السابق (٥١٧/٣)

ذلك إضاعة الأنساب لأولئك الأبناء. مما يدل على عناية شريعة الله تعالى بالأنساب، وما يترتب عليها، وأنها من لوازم الأسرة والبيت التي يجب عليهم حفظها والمحافظة عليها.

ثم تأتي المعالجة في حالة عدم معرفة آبائهم، فإن الحل هو ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ فإن لم يكن لكم علم بآبائهم لأي سبب من الأسباب ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ فهم إخوانكم في الدين، فهي أخوة مبنية على وحدة الدين. مما يبين ويفيد قوة العلاقة الدينية بين المؤمنين، فإنها تشكل المؤاخاة القائمة على الدين، فكل مسلم هو أخ لغيره من المسلمين، مما يوجب التعاطف والتراحم بينهم. بما يؤكد هذا أن دين الله تعالى هو دين الحق، ودين الاجتماع، والمؤاخاة، والتعاضد والتعاون.

ثم جعل سبحانه وتعالى خيار ثاني يختارونه في تحديد العلاقة، وهو ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي: الموالاة الصادقة على الدين، قال الزجاج رحمه الله تعالى: أي: بنو عمكم[١] وذلك عوضاً عما فاتهم من النسب. وفي هذا معالجة لمن لم يتبين ويثبت نسبه، فادعوهم بأحب المعاني والدلالات التي تحملها الأخوة والموالاة: يا أخي فلان، يا مولاي. كما قال صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثه (أنت أخونا ومولانا)[٢] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وقال لزيد (أنت أخونا ومولانا: كما قال تعالى ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾[٣] وفي هذا ما يؤكد أهمية المناداة والمخاطبة بأحسن الألفاظ والعبارات الطيبة. ودليل على أن الإسلام يُعَلِّم أتباعه الخير، ومكارم الأخلاق.

ثم تأتي المعالجة من الله سبحانه وتعالى لمن يحصل منه الخطأ في دعوة غيره لغير أبيه خطأ ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ فإن خرجتم عن الأصل والصواب في دعوة الأبناء لغير آبائهم خطأً من غير قصد وتعمد، فليس عليكم حرج ولا وزر، ولا إثم في ذلك، فإن ربكم من رحمته بكم رفع عنكم الحرج، وما يتبعه من الإثم فيما أخطأتم به، غير متعمدين ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ فالحرج والإثم هو فيما تعمدت قلوبكم، بأن قلتم ذلك على طريقة العمد بأن نسبتم الأبناء لغير آبائهم مع علمكم بذلك. فتخصيص تعمد القلوب ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ جمع جميع المقاصد السيئة التي قد يتعمدها الإنسان مع غيره. بل من دقة البيان أن جعل مناط التعمد هي القلوب. لأن ما يظهر من غير قصد يكون من الجهل، أو من سَقَطات

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨١/٦)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٢٦٧/٢-٢٦٨) برقم (٢٦٩٩)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٧٥/٣)

اللسان التي تكون عن النسيان، والخطأ. ولكن في قصرها على التعمد ﴿مَّا تَعَمَّدَتۡ﴾ وعلى القلوب ﴿قُلُوبُكُمۡ﴾ ما يدل على دقة اختيار المصدر في التلفظ. وهذه من دقائق الإعجاز في البيان، وتحرير الكلام. كما أن هذه المعالجة الربانية تبين وتُظهر شيئاً من مظاهر اليسر، والحكمة في معالجة الخطأ، ورفع الحرج عند وقوع الخطأ. كما تعلم المؤمن كيف يكون حاله مع من أخطأ معه، فإذا كان الله تعالى لا يؤاخذ عباده عند وقوع الخطأ وزلات اللسان، فإن لأجدر بالإنسان أن لا يؤاخذ غيره عند وقوع الخطأ، والنسيان، فيتجاوز عن غيره حتى تستقيم العلاقات وتنموا، ولا يُؤولها التأويل الفاسد، فيدخل في النوايا والمقاصد.

ثم يبين سبحانه وتعالى ما اتصف به من صفات المغفرة والرحمة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ فإن ربكم يغفر للمخطئ، ويرحمه، ويتجاوز عنه. لأنه سبحانه وتعالى متصف بالمغفرة والرحمة، فيغفر الذنوب، ويرحم العباد، ومن جملة ذلك مغفرته لمن أخطأ بأن نسب غيره إلى غير أبيه. فإن رحمة الله تعالى واسعة. وفي هذا دعوة وتحفيز وتنشيط للاستغفار مما يقع من الخطأ والنسيان، مما يبين أن الله سبحانه وتعالى قد أراد بعباده الخير، وأنه ما أرسل الرسل ولا أنزل الكتب إلا رحمة بالعباد، ليتبعوا شرعه وفق ما شرع، وليصحح لهم مفاهيمهم، حتى تستقيم أمورهم. وقد ورد بيان المغفرة والرحمة بأسلوب الإثبات الأزلي، فحرف **(إن)** من قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ﴾ هو حرف توكيد، والفعل ﴿كَانَ﴾ فعل ماضي، مفاده أن المغفرة والرحمة صفة ثابتة لله تعالى، وليست حادثة لما وقع منهم، وخاصة بهم. بل إنها صفة من صفاته الكريمة. فالحمد لله رب العالمين على مغفرته ورحمته وفضله وهدايته.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٨﴾

بعد معالجة قضية التَّبَنّي، بما يَدَّعِيه الرجلُ من البنوة لمن يتبناه من الغرباء، فيجعله كالابن المولود له من صلبه، فيدعوه الناس له، ويرث ميراثه. ينتقل السياق البياني الكريم إلى معالجة قضية العلاقات بين المسلمين، ابتداء من علاقتهم برسولهم صلى الله عليه وسلم. فيقول عزَّ وجل ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ

أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ ابتدأ التوجيه الكريم في معالجة العلاقة البينية بينهم، ببيان علاقة المؤمنين بالرسول صلى الله عليه وسلم، ثم زوجاته عليه الصلاة والسلام، ثم ما يخص الأقارب ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فالنبي عليه الصلاة والسلام أقرب صلة للمؤمنين حتى من أنفسهم في أمور الدين والدنيا، فليس للمؤمن أن يُقَرِّب ويُقَدِّم حظوظ نفسه على النبي عليه الصلاة والسلام، بل يقدمه على نفسه، ولا يستأثر بها عنه صلى الله عليه وسلم. بما يفيد أن يفديه بنفسه وماله وجميع ما يملك، ويقدم حاجات النبي صلى الله عليه وسلم على حاجاته، ويستأثر بالرسول صلى الله عليه وسلم على نفسه. وبهذا الحكم الرباني أبان وأظهر سبحانه وتعالى منزلة النبي صلى الله عليه وسلم عند المؤمن، وحقه عليهم، بأنها أعز وأغلى وأرفع منزلة من نفس المؤمن. ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يفدونه بأرواحهم صلى الله عليه وسلم، وينافحون عنه، ويقفون معه في السراء والضراء، فلا يرون لأنفسهم حق إلا بعد النبي صلى الله عليه وسلم. فهو أعظم الخلق منة على المؤمنين، وذلك بما أرسله الله تعالى به من الهدى ودين الحق الذي يُنقذهم به من النار، ومن ظلمات الجهل إلى نور الإسلام وهديه، وإلى الجنة. إذ علمهم دينهم، ومكارم الأخلاق، وما يُسعدهم في الدنيا والآخرة، فليس هناك حق لأحد من البشر كحقه عليه الصلاة والسلام. بل وكان عليهم حريصاً، وبهم رؤوفاً رحيماً، وشفيقاً عليهم عليه الصلاة والسلام، فأصبح واجبه على أمته عظيم إلى أن تقوم الساعة، ويفنى الخلق من الدنيا.

ثم يخبر الله تعالى بعد ذلك بالمنزلة التي تلي منزلة النبي صلى الله عليه وسلم، وهي منزلة زوجاته عليه الصلاة والسلام، فيخبر عباده المؤمنين بدرجة علاقتهم بزوجات النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ فمنزلة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين، هي منزلة الأم، في الاحترام والإكرام، فلهن ما للأمهات من الحقوق، فلا يجوز للمؤمنين أن يتزوجوهن بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، بل يجب عليهم أن يحموهن، ويترضوا عليهن، ولا يجعلون لهن حاجة إلا ويقضونها عنهن، ويقولون لهن وعنهن أمهات المؤمنين. وهي درجة ومنزلة عظيمة لهن أوجبها الله تعالى، وفرضها على المؤمنين. فقد خدمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكن أقرب الناس إليه، فحفظ الله تعالى لهن ذلك، كما أن في هذا إكرام للنبي صلى الله عليه وسلم، ورفعة لمنزلته، بتقدير الله تعالى لزوجاته حياً وميتاً صلى الله عليه وسلم. ومنزلة ولقب أمهات المؤمنين هو أكبر وأعظم لقب لهن. وهو لقب لا يصح لأي امرأة غير زوجات النبي صلى الله عليه وسلم. حتى أن لقب السيدة هو أدنى بكثير من لقب أم المؤمنين. فالسيدة عام يُطلق على كل امرأة لها سيادة، أو ليس لها سيادة، وأما أم المؤمنين فليس لأحد غيرهن نصيب من هذا اللقب، ثم إنه تسمية من الله تعالى لهن، وتسمية الله تعالى أعظم من كل تسمية.

ثم تدرج البيان والتوجيه الكريم إلى علاقة الأقارب، حيث كان المسلمون في أول الإسلام يتوارثون بالإيمان وبالهجرة دون الرحم. ثم نُسخ ذلك بآية المواريث. فقال تعالى في هذه السورة المباركة ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ وهم الأقارب، الذين تربط بينهم رابطة الرحم كالآباء والأبناء والإخوة والأخوات، وسواء بعدوا أو قربوا ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ أي: وذوو القرابة بعضهم أحق بميراث بعض في حكم الله تعالى من الإرث بالإيمان والهجرة، فهم أولى من الحلف والنصرة، فهم أولى ببعضهم البعض في الإرث والبر والصدقة، وتبادل المنافع فيما بينهم، فهي أولوية أقرها الله تعالى في كتابه، بما بينه في آيات المواريث، وآيات الصدقات. ثم يبين سبحانه وتعالى أنه قضى بذلك في كتابه ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ وهو يشمل اللوح المحفوظ، والقرآن العظيم.

فذوي الأرحام بعضهم أولى ببعض من بقية المؤمنين والمهاجرين ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ فهناك مفاضلة قد فرضها الله تعالى مراعاة للرحم والقرابة والصلة والدم. قال السعدي رحمه الله تعالى: أي: سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدَّمون في ذلك. وهذه الآية حجة على ولاية ذوي الأرحام، في جميع الولايات، كولاية النكاح، والمال، وغير ذلك[١] فأولوا الأرحام أولى بميراث بعضهم بعضاً من عموم المؤمنين والمهاجرين، ففيه إبطال لأن يرث المؤمنون بعضهم بعضا، بالهجرة والإيمان دون الرحم، فعن قتادة رحمه الله تعالى أنه: لبث المسلمون زماناً يتوارثون بالهجرة. والأعرابي المسلم لا يرث من المهاجرين شيئاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فخلط المؤمنين بعضهم ببعض. وقال ابن زيد: كان النبي صلى الله عليه وسلم قد آخى بين المهاجرين والأنصار أول ما كانت الهجرة، وكانوا يتوارثون على ذلك. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فمعنى الكلام على هذا التأويل: وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين والمهاجرين ببعضهم، أن يرثوهم بالهجرة[٢] وفي هذا ترتيب وبيان للصلة التي يتقوى بها الأقارب، ويحصل بينهم المزيد من الألفة. مما يبين حرص الإسلام على بناء العلاقات بين المسلمين بحسب درجاتها، وتحقيق التآلف والترابط والتكاتف والتعاون الذي تتحقق به مسيرة الحياة، والتي تبين حاجة الناس لبعضها البعض، وأن الناس متباينون في الحاجات، ولا يستغنون عن بعضهم البعض. فعزز الله سبحانه وتعالى هذا الشأن بالتشريع الذي يعزز هذا الأمر.

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٣٧/٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/١٩-١٨)

ثم استثنى تبارك وتعالى ما يعالج به الذي يمتنع منه وبه الإرث، لأن ليس كل الأقارب يرثون، وبعضهم مما لا يرث، وهو في حاجة إلى معروف غيره من الأقارب، الذين يمتنع عليه أن يرث منهم شيئاً، فقال تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾ فالأرحام بعضهم أولى ببعض في كل شيء من الإرث وغيره من البر والصدقة والإحسان إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً من بر وصدقة وإحسان أو وصية. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: والمعنى: أن ذوي القرابات بعضهم أولى بميراث بعض من أن يرثوا بالإيمان والهجرة كما كانوا يفعلون قبل النسخ ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾ وهذا استثناء ليس من الأول، والمعنى: ولكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً جائز، وذلك أن الله تعالى لما نسخ التوارث بالحلف والهجرة، أباح الوصية للمعاقدين، فللإنسان أن يوصي لمن يتولاه بما أحب من ثُلثِه، فالمعروف ها هنا الوصية[١] أي: إلا أن تفعلوا أيها المسلمون إلى غير الورثة من أوليائكم معروفاً من البر والصلة والنصرة والإحسان والوصية من باب المعروف، وليس واجباً ملزماً. وهذا لا ينفي ولا يمنع بر الأقارب لغيرهم، ولكن غيرهم يكون بعدهم في الرتبة والدرجة والأولوية.

وقد وردت الصلة بينهم بدلالة معنى المعروف ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾ وكونه معروفاً فإنه أفاد: أنه ليس بواجب مفروض، بل هو عطاء ومبادرة منكم، إن أحببتم ذلك تعاطفاً وتواصلاً وبراً. والمعروف في هذا السياق يشمل كل عمل خير، دون حصره في نوع محدد، ليفيد التنوع الذي يتفاوت الناس فيه، نوعاً وكثرة، وحاجة، وقدراً، فاستوعبه السياق الكريم من جميع الأوجه الممكنة منهم لبعضهم البعض. وسماهم ﴿أَوۡلِيَآئِكُم﴾ بما يفيد الموالاة بموجب القرابة. وأولي الأرحام بعضهم أولى ببعض من غيرهم في كل شيء من الإرث إلا أن تفعلوا بتقديمكم شيئاً من المعروف والصدقة والعطية والهدية، فهو جائز مباح لكم. وقال القرطبي رحمه الله تعالى: يريد الإحسان في الحياة، والوصية عند الموت، أي: أن ذلك جائز، قاله قتادة والحسن وعطاء. وقد فَصَّل القرطبي رحمه الله تعالى مسائل فقهية كثيرة في هذا، ومنها حال إن كان بعضهم غير مسلم، فللمزيد يمكن الرجوع إليه[٢] وذكر ابن جرير رحمه الله تعالى: أنه اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: إلا أن توصوا لذوي قرابتكم من غير أهل الإيمان والهجرة[٣] وفي هذا ما يفيد أن الأقارب نوعين: نوع يرث، ونوع لا يرث، فجعل الله تعالى للذي يرث حق مفروض معلوم النصيب، والذي لا يرث له المعروف من الإحسان بجميع أنواعه وفروعه ودرجاته، وهذا من عظمة الإسلام في بناء المجتمع، وسد حاجاتهم فيما بينهم.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨٢/٦)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٤/١٤)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/١٩)

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن سابق القضاء بذلك في اللوح المحفوظ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي: ما تقدم ذكره قد قضى به سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ، ومعنى مسطوراً: أي: مكتوباً. وقد بينه الله سبحانه وتعالى في كتابه القرآن الكريم، وأوضحته سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم. مما يعزز لدى المسلمين المبادرة إلى ما قضاه الله سبحانه وتعالى.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما أخذ على النبين من مواثيق الوفاء بما حملوا من أمانة الرسالة، وأنه كان ميثاقاً مغلظاً. فقال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ واذكر أيها النبي وقت وحين أخذنا من النبيين ﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي: العهد المؤكد، والمواثيق: بتبليغ الرسالة التي عهدنا بها إليهم. فقد أورد البيان الكريم أخذ العهد من عموم الأنبياء ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ ثم ذكر سبحانه وتعالى تخصيصاً أولوا العزم من الأنبياء بتسميتهم. وابتدأ البيان بالرسول صلى الله عليه وسلم، للتنويه بفضله صلى الله عليه وسلم، فهو سيد الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام، فقال عَزَّ وجل ﴿وَمِنكَ﴾ واذكر أيها النبي وقت أخذنا منك العهد، ثم ذكر سبحانه وتعالى بقية الرسل ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وفي تخصيص هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من بين غيرهم للتنويه والتنبيه بفضلهم، فهم أولوا العزم من الرسل.

ثم ذكر تبارك وتعالى بالتنصيص على الذي أخذه عليهم ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ وأخذنا من الأنبياء عهداً مؤكدا عظيماً، بتبليغ الرسالة. ووصف الله تعالى الميثاق بالغليظ ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ لبيان جلالة وعظمة شأنه، بأن الذي أخذه منهم كان ميثاقاً شديداً على لزومه والوفاء بما حَمَّلَهم ربهم به من شأن الرسالة، مما يبين حجم الرسالة، وقوة ما فيها من معاناة في مواجهة اختلاف الناس، وتباينهم، ومواجهة تكذيبهم، واستهزائهم، وخوض الحروب بالجهاد، وما يتطلب الأمر من الصبر. ولذلك كانت منزلة الأنبياء منزلة عالية سامية على جميع الخلق. مما يعطي المؤمنين بياناً بأن طريق الدعوة إلى الله تعالى محفوف بالمشقة، فيلزم الاقتداء بأولي العزم من الرسل. وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر الله تعالى عن تبعات هذا الميثاق الغليظ الذي أخذه الله تعالى على الأنبياء ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ليسأل المرسلين عما أجابتهم به أممهم، ويسأل الله

تعالى الأنبياء وأتباعهم عن وفائهم بهذا الميثاق. فجملة ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ متعلقة بقوله تعالى في الآية السابقة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي: أخذنا الميثاق عليهم ليسأل الصادقين عن صدقهم، أي: النبيين والإيضاح. بسؤال الأنبياء عن صدقهم في تبليغ الرسالة، وعما أجابهم قومهم، وعن الوفاء بالميثاق. بالرغم من علمه سبحانه وتعالى بحقائقهم، وبحقائق أقوامهم إلا أنه من باب إظهار إقامة العدل، وإقامة الحجة على من أبى وكفر من الناس. ومما يفيد إسداء الثواب العظيم والمنزلة الكريمة للصادقين، وهم الأنبياء، والثواب الجزيل لمن اتبع الصادقين. فشملت دلالة الصادقين الأنبياء، وكذلك من صَدَّقهم، فآمن، واتبعهم.

ومن جميل ودقائق السياق أن الله تعالى زكاهم بتسميتهم بالصادقين ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ كما تشمل مَن صَدَّقهم، إذ يقابلهم الكافرون الذين كفروا ولم يؤمنوا ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقد أعد الله تعالى مسبقاً لكل الكافرين عذاباً شديداً، مقابل ما أعد للصادقين من عظيم الأجر والمثوبة. وكذلك لم يذكر هنا سبحانه وتعالى استجواب الكافرين. لإفادة تحقق العذاب فيهم. وليفيد الإنذار للكافرين قبل فوات الفرصة المتاحة لهم للطاعة والتصديق بالصادقين الذين حملوا الرسالة إليهم. وآخرهم وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. فهو النبي الذي لا نبي بعده، ولا دين بعد بعثته إلا ما أتى به، فهو الذي يجب طاعته بعد بعثته عليه الصلاة والسلام، حيث نسخ الله تعالى ما سبق بهذا الدين العظيم.

ومن مزيد الفوائد عن معطيات السياق من الدلائل ما ذكره الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: لكي يسأل الصادقين من النبيين عن صدقهم في تبليغ الرسالة إلى قومهم. وفي هذا وعيد لغيرهم، لأنه إذا كانوا يُسألون عن ذلك، فكيف بغيرهم. وقيل: ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم[1] فيسأل الله تعالى الصادقين ليثيبهم، ويسأل الكافرين عما أجابوا الأنبياء الصادقين فيعاقبهم بما يستحقون من جهنم وسوء المصير.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٢٦٤)

زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى غزوة الأحزاب، وبيان ما امتن الله تعالى به على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين، بنصرهم على الأمم التي تكالبت عليهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ يا أيها المؤمنون اذكروا نعمة ربكم عليكم، حين اجتمع عليكم المشركون من خارج المدينة، واليهود والمنافقون من المدينة وما حولها، فأحاطوا بكم. فأرسلنا على هؤلاء الذين تحزبوا ضدكم ريحاً شديدة، اقتلعت خيامهم، وتطايرت بها قدورهم، وأمتعتهم. وجنوداً من الملائكة لم تروها، وأوقع الرعب في قلوب الذين تحزبوا عليكم، فتفرقوا، ولم ينالوا منكم ما أرادوا وتمنوا. وتُسمى كذلك بغزوة الخندق، وكانت في شوال، سنة خمس للهجرة النبوية، كما ذكر ابن هشام في السيرة النبوية[١] وقد حفر المسلمون الخندق بناء على مشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه[٢] وكان عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف مقاتل، وعدد جيش الأحزاب عشرة آلاف مقاتل. وقد استشهد ستة من المسلمين، وقُتل من المشركين ثلاثة نفر[٣] مما يبين البون والفرق الواسع والشاسع بين الفريقين، ولكن النصر من الله تعالى، بما امتن به على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين. إذ يتحقق النصر كيف يشاء، عَزَّ وجل.

وبدأ البيان الكريم بمناداة المؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[٤] وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وكذلك

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٢٢٤/٣)

(٢) ابن سعد، الطبقات (٦٦/٢) وابن حجر، فتح الباري (٣٩٣/٧)

(٣) خالد بن حامد الحازمي، الفوائد السنية من السيرة النبوية (٣٤٤-٣٤٥)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

ما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به، وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم يوجه سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بعظيم تفاصيل النعمة، لينبهم، وينبه غيرهم كيف ينصر الله تعالى عباده، ويبين لهم قوة تدبيره، وقوة سلطانه، ونفوذه الذي لا يُقهر، والذي يُذِلُ به من يشاء، ويقهر به من عاداه، وعادى أولياءه. فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ اذكروا نعمة الله تعالى بالشكر والاعتبار. وبما يفيد المداومة على ذكر أفضال الله تعالى، وخاصة بما تحقق لكم من ذلك النصر. وتفيد كلمة ﴿ ٱذۡكُرُواْ ﴾ استرجاع ما تعرفونه من النعمة التي عرفتموها وأيقنتموها، وعايشتموها. ومن دقائق التوجيه والتنبيه أن أسدل سبحانه وتعالى النعمة إليه ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ لأنه المتفضل على المؤمنين بما أنعم من نصرهم بالريح، وبالجنود من الملائكة التي لم يروها. مما يفيد أن على المؤمن أن يستديم دائماً نعمة الله تعالى، وبأن لا تُنسيه النعمة الجديدة، ما سبق من الإنعام، ليكون دائم الشكر، وفي هذا التوجيه من رب العالمين بأن يذكروا نعمته عليهم من النصر ليزدادوا إيماناً، وثقة بقوة الله تعالى، وأن الله تعالى مع المؤمنين على من عاداهم.

ثم يُفَصِّلُ سبحانه وتعالى تفاصيل ذلك الإنعام بإيجاز بليغ ﴿ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ ﴾ حين اجتمعت عليكم جنود المشركين من خارج المدينة، واليهود والمنافقون من داخل المدينة وما حولها، فأحاطوا بكم. وقد خندق الرسول صلى الله عليه وسلم على المدينة بخندق، فحاصر الأعداءُ المدينةَ، بقصد أن يعبروا الخندق. فكان حصاراً شديداً، وتجمعاً قد بلغت منه القلوب مبلغاً عظيماً، كما سيرد البيان له قادماً إن شاء الله تعالى. مما يبين أن القدرة السببية لوحدها متعذرة أمام هذه الحشود الكافرة، والتي جعلت المؤمنين في خوف ورعب. وهنا جاء نصر الله تعالى، بأن سلط على الأحزاب من اليهود والمشركين والمنافقين جنداً من عنده ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا

عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ فهزمهم سبحانه وتعالى بأمرين: الأول: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ فسلط الله تعالى على الأعداء المتحزبين ريحاً شديدة، وهي رياح الصبا، أرسلها الله سبحانه وتعالى على الأحزاب يوم الخندق، فأعمت أبصارهم مما حل بأعينهم من الأتربة، واقتلعت خيامهم التي شيدوها، وعسكروا فيها للمنازلة والحرب، وتطايرت فرشهم وقدورهم، وأدواتهم. فعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (نُصرت بالصبا، وأُهلكت عاد بالدبور) [١] والدبور هي الريح الغربية[٢]

والأمر الثاني: هم جنود الله تعالى من الملائكة ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وجنوداً لم تحسوا وتشعروا بهم، ولم ترونهم كذلك، وهي الملائكة، فأطفأت نيرانهم، وقلعت أوتاد خيامهم. قال المفسرون رحمهم الله تعالى: بعث الله تعالى عليهم الملائكة، فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وأرسل الله عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر، حتى كان سيد كل قوم يقول لقومه: يا بني فلان هلما إليَّ. فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء، النجاء[٣] ثم قرر سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين بأنهم لم يروا تلك الجنود من الملائكة، لأنها تجوب في صفوف الأعداء من حيث لم يروها ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ ليتبين عظيم قدرة الله تعالى، وعظيم سلطانه، وتدبيره، وكل شيء من خلقه سبحانه وتعالى هو جند من جنوده عَزَّ وجل، فإذا أراد شيئاً سلط جنوده على من يشاء، كما سلط الضفادع والقمل على قوم فرعون. فلا حصر لجنود ربنا تبارك وتعالى. مما يُوجب على الإنسان أن يتق الله تعالى.

ويختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ فكل ما كان ويكون وما سيكون منكم محل معرفة الله تعالى: حين تَحَمَّلْتُم مشاق حفركم الخندق، وتنظيم صفوفكم للحرب، وما استعديتم به لأعدائكم، واستنصاركم بربكم عَزَّ وجل، وتوكلكم عليه، ويشمل البيان علمه سبحانه وتعالى بما كان من التحزب بين الكفار، وما اتفقوا عليه من استئصالكم، واجتماعهم عليكم من كل جهة. بما يفيد أن الله تعالى معكم بعلمه ومعونته ونصره لكم، وعليم بما يُدَبَّر ويُحاك ضدكم، فاطمئنوا، واجتهدوا في طاعته سبحانه وتعالى.

ومن دقائق البيان أن أورد الله سبحانه وتعالى عملهم بصيغة المضارع المستمر ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ لإفادة علم الله تعالى المستمر الذي لا ينقطع، ولا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، وكذلك

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١١٦/٣) برقم (٤١٠٥)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٤٠٢/٧) خالد الحازمي، الفوائد السنية من السيرة النبوية، ص (٣٤٤)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٢٦٤/٤-٢٦٥)

ورد بصيغة التعميم، ليفيد علمه بكم وبأعدائكم، وبكل ما يكون من الفريقين. مما يبني في المؤمن قوة التوكل على الله تعالى في كل شأن، فهو المدبر، وهو الذي يعلم ما لا يعلم الإنسان من نفسه ومصالحه، وما هو كائن لعباده، وما يمكر به الماكرون، وهو الذي يدفع ويقطع ويمنع ما تكرهون. فأطيعوا ربكم وتوكلوا عليه، فإنه بصير بجميع خلقه. كما أن دلالة ﴿ بَصِيرًا ﴾ تجمع الرؤية للعباد، وتجمع معها المعرفة بتدبيركم وشأنكم، فتحقق النصر لهم لأنه سبحانه وتعالى بصير بما كان منهم من الجهد الذي بذلوه، وما هم عليه من الحق، وفي المقابل علمه بما عليه الأعداء من الباطل والكفر، ومحاربة الحق. وهو البصير بكيف يحقق لكم النصر. فسبحانه الله العظيم، العليم البصير. اللهم وفقنا وسددنا.

ثم يزداد البيان عن إنعام الله تعالى على المؤمنين، بتفصيل وتفريع أحداث غزوت الأحزاب، مع بيان حال المؤمنين أمام كثرة عدوهم، وتكالب أهل الكفر على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين. مع بيان حالة نفوس المؤمنين واضطرابها، ولكن فضل الله تعالى عليهم عظيم، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ واذكروا أيها المؤمنون حين تكالب عليكم الأعداء، فوَرَدُوا إليكم ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ أي: من أعلا الوادي. وهم بنو غطفان. قال القرطبي رحمه الله تعالى: من فوق الوادي، وهو أعلاه من قِبَل المشرق. جاء منه عوف بن مالك في بني نصر، وعيينه بن حصن في أهل نجد، وطليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد. ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ يعني: من بطن الوادي، من قبل المغرب، جاء منه أبو سفيان بن حرب على أهل مكة، ويزيد بن جحش على قريش، وجاء أبو الأعور السلمي، ومعه حيي بن أخطب اليهودي، في يهود بني قريظة، مع عامر بن الطُّفيل من وجه الخندق[1] وأمام هذا التكالب، وإحاطة الأعداء بالمؤمنين، ازداد كرب المؤمنين.

وقد وصف الله تعالى هذا الكرب بأدق الوصف، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ أي: مالت عن طبيعتها حيرة وشخوصاً، فمالت الأبصار واشتدت عن مقرها وعن كل شيء إلا إلى عدوها، فشخصت إليه الأبصار، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: قيل: شخصت: دهشاً من فرط الهول والحيرة[2] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: مالت عن سننها، ومستوى نظرها، حيرة وشخوصاً، وقيل عدلت عن كل شيء، فلم تلتفت

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/٩٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤/٢٦٥)

إلا إلى عدوها، لشدة الروع [١] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: الزيغ الميل عن الاستواء إلى الانحراف، فزيغ البصر: أن لا يرى ما يتوجه إليه، أو أن يريد التوجه إلى صوب، فيقع إلى صوب آخر، من شدة الرعب والانذعار[٢] بما يفيد انحصارها على عدوها فقط، تَرَقُّب كثرته، وإحاطته بهم.

وكما تأثرت الأبصار بما أدهشها، تأثرت القلوب كذلك تأثراً بالغاً، فقال تعالى ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ وبلغ الأمر بالقلوب أن وصلت إلى الحناجر، الذي هو جمع حنجرة، راغبة في الخروج من هول المشهد. قال قتادة رحمه الله تعالى: شخصت عن مكانها، فلولا أنه ضاق الحلقوم عنها أن تخرج لخرجت[٣] بما يفيد قوة الهلع والخوف، الذي جعل القلوب تكاد أن تخرج مع الحناجر لولا ضيق الحنجور الذي حال بينها وبين خروج تلك القلوب. فهو وصف في غاية البيان لصورة مشهد المؤمنين في ذلك الموقف.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى عن حال القلوب فيما يخص التوقعات التي يمكن أن تحدث لهم ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ فهناك ظنون المؤمنين، أن الله تعالى ناصر رسوله والمؤمنين، وهناك ظن المنافقين أن ما وعدهم به الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو إلا غروراً، لا حقيقة له. فعن الحسن قال: ظنوناً مختلفة: ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه سيستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله حق، أنه سَيُظهره على الدين كله ولو كره المشركون[٤] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وفي صيغة المضارع ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ معنى التعجب من ظنونهم، لإدماج العتاب بالامتنان. فإن شدة الهلع الذي أزاغ الأبصار، وجعل القلوب بمثل حالة أن تبلغ الحناجر، بل على أنهم أشفقوا من أن يُهزموا لِمَا رأوا من قوة الأحزاب، وضيق الحصار، أو خافوا طول مدة الحرب، وفناء الأنفس، أو أشفقوا من أن تكون من الهزيمة جراءة للمشركين على المسلمين. والمؤمن وإن كان يثق بوعد ربه، لكنه لا يأمن غضبه من جراء تقصيره، ويخشى أن يكون النصر مُرجى إلى زمن آخر، فإن ما في علم الله تعالى وحكمته لا يُحاط به[٥] فيشمل البيان جميع ما يدور في القلب من الرجاء، ومن الخوف، فالرجاء ينطوي عليه التفاؤل، والخوف ينطوي عليه الخشية مما يتبعها من وقوع ما تكره النفس، الأمر الذي زاغت به الأبصار، وبلغت به القلوب الحناجر. فهو إيضاح لجميع ما كان يدور في خلجات النفس، وما ظهر

---

(١) الزمخشري، التحرير والتنوير (٥٢٣/٣)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩١٤/٨)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨٤/٦)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٦/١٩)

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩١٦/٨)

على ظاهرها من زيغ الأبصار. ولتظهر نعمة الله تعالى عند انفراج الشدة. مما يفيد أن حال المؤمن عند إصابته بالشدائد، يبلغ به الخوف مبالغ عظيمة، ويتصور جميع الاحتمالات الممكنة، وفي نفس الوقت يتذكر رحمة الله تعالى، ويتصور جميع احتمالات الفرج بأنواعها، فيرتفع الأمل، ويكثر الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى، حتى تنكشف عنه الغمة التي لا يعلم بها إلا الله سبحانه وتعالى، ولا يعلم ما يدور في القلب إلا الله عزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى بأنه في ذلك الموقف حصل التمحيص والاختبار للمؤمنين ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ ففي ذلك الموقف وفي ذلك الوقت من شدة حصار وتكالب وتجمع الأعداء، وما تبعه من الخوف والفزع، والقتال والجوع والحصار ﴿ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ مُحِّص المؤمنون، فقد تم الاختبار والتمحيص للمؤمنين، ليظهر قوي الإيمان، وضعيف الإيمان، والمنافق، والْمُخَذِّل، فَيُظهر ذلك الموقف جميع درجات الإيمان، وقد ثبت المؤمنون على ما سيأتي بيانه من الله تبارك وتعالى، وتزكيته لهم، رضي الله عنهم، وصلى الله وسلم على الرسول والقائد.

ثم يُشَخِّصُ البيانُ من الله تعالى قوة ما أصابهم بما أحدثه الموقف العصيب والرهيب ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ أي: وقع بهم من الأمر ما زلزلهم به من شدته، ومن قوة الاضطراب، فكان المشهد بالنسبة لهم أنه زلزلهم زلزلة شديدة، والتي هي كثرة وقوة اضطراب القلوب المتتابع، وغير المتوقف، بل وصفه سبحانه وتعالى زيادة على ذلك بالشدة ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ فقد كان شديد الوقع، وشديد الأثر، الذي يظهر معه التمحيص، والفرز والبيان والظهور. ومن دقائق اللغة العربية أن كلمة: الزلزلة ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ قد تكررت فيها الحروف المكونة لها، وهما حرف **(ز)** وحرف **(ل)** فأعطت معنى الزلزلة، الذي يتوافق مع دلالة المعنى. بما يفيد أن تكرار تراكيب حروفها قد أعطى التتابع والتوافق مع تكرار الحركة. وهذه من عجائب اللغة العربية التي يترجح بها أنها إلهام من الله تعالى، لما فيها من الإعجاز.

وهذا الحدث العظيم من غزوة الأحزاب يبين أن جيل الصحابة رضي الله عنهم قد تعرضوا للمحن والتمحيص، وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما يفيد أن الابتلاء والاختبار هو سنة الله تعالى في عباده، ليظهر إيمان الإنسان على حقيقة، وينكشف للمرء بالابتلاء والتمحيص درجة إيمانه، كما قال تعالى في سورة محمد ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ وكذلك في سورة البقرة ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ

﴿ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ﴾ مما يفيد أن الابتلاء من الله تعالى يتطلب الصبر والثبات، وأنه متنوع في أصنافه وأنواعه، وأن ثوابه عند الله تعالى عظيم لمن صبر، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. فأولئك هم المهتدون الذين عليهم الثناء والتنويه بحالهم، وكذلك عليهم رحمات الله تعالى وبركاته.

ثم يتدرج البيان من الله عَزَّ وجل إلى كشف حال المنافقين بتحليل وتعرية شأنهم وواقعهم، وما في قلوبهم من الطعن في دين الله تعالى، فيقول جَلَّ شأنه عنهم ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾ ففي ذلك الموقف العصيب تظهر أصناف الناس، وحالهم مقارنة بالمؤمنين الصادقين: فهناك صنف المنافقين ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ ﴾ الذين يُظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر. وأما الصنف الآخر: أهل الشك والريبة، الذين في قلوبهم مرض ﴿ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ ﴾ الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم كتمكنه من المؤمنين الصادقين، المتمثل في الصحابة الكرام رضي الله عنهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أما المنافق فَنَجَم نفاقه، أي ظهر. والذي في قلبه شبهة أو حسيكة، ضعف حاله، فتنفس بما يجده من الوساوس في نفسه، لضعف إيمانه[1] فهذان الصنفان حصل وظهر منهم باطل القول. وقد سَمَّى الله تبارك وتعالى أهل الشك والريبة بأن قلوبهم كانت مريضة ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ ﴾ عندهم إيمان ولكن إيمانهم مشوب بخليط من الشك، فأمرض قلوبهم، فأصبحت قلوبهم تعاني بمثل ما يعاني المريض، فعنده أمل في الشفاء، ولكن بمجرد أن يزيد الألم يُغَلِّب عدم الشفاء، فهو متذبذب في مشاعره، فتقلب الأحوال تتقاذف شأنه طلوعاً ونزولاً. فورد الوصف لقلوبهم بالمرض لأنه الأدق في الوصف، وفي التشابه. مما يفيد أن هذا الصنف يحتاج إلى تقوية الإيمان، وأن من كان حاله كذلك فيعرف أن في إيمانه مرض وضعف وعلل، فيحتاج إلى معالجته بتقوية الإيمان، بمواعظ الله تعالى، ومواعظ رسوله صلى الله عليه وسلم، وكثرة الدعاء، والالتجاء إلى الله تعالى، وكثرة التأمل في تدبير الله تعالى، وآياته الكونية، والمقروءة، فإن تلك هي الأدوية لمن في قلبه ضعف ومرض.

فالمنافقون وأهل الشك والريبة قالوا ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾ أي: أن الوعد بالنصر والتمكين لم يكن إلا وعداً باطلاً، لا حقيقة له، بل هو عار من الصحة. لأن الغرور: الطمع في الشيء، ثم لا يحصل عليه الطامع والراغب فيه. فَرَغِبُوا في النصر، ووجدوا الابتلاء. والمؤمن يكون صابراً وثابتاً أمام الابتلاء، مؤملاً وواثقاً بحصول ما وعد الله تعالى به، ووعد به رسوله صلى الله عليه وسلم. وإن حدث في الطريق بعض الأمور، فإنها سنة الله تعالى في اختبار وتمحيص العباد، وتربيتهم على الحق والصبر، وعلى سننه سبحانه وتعالى

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٨١)

في التدبير. مما يعلم المؤمن أن الطريق إلى الله تعالى محفوف بالابتلاء في شؤون الحياة جميعاً، بما يتطلب الصبر والثبات. والإكثار من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي القدير، سبحانه وتعالى.

كما أفاد قولهم ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أن المنافق والشاك يعيش في ضنك وقلق، لأن المنافق كاذب مخادع، ليس في قلبه إيمان، والمريض كذلك في إيمانه خلل وريبة وشك، فتكون حياته أمام فواجع الأيام مضطربة، فهي في اضطراب وقلق، فيتزلزل مع المصائب زلزالاً شديداً. وأما المؤمن فبقوة يقينه وتوفيق الله تعالى له يكون على درجة عالية من الثبات حتى ولو بلغت القلوب الحناجر، فاليقين والثقة بالله تعالى قوة قلبية عظيمة، مع حفظ وعون وحرز الله تعالى له، والذي يمكنه من اليقين والاطمئنان، وبهذه المعالجة الإيمانية يتحقق له شجاعة المواجهة، لِمَا يشعر به من الإيمان والثقة بالله تعالى، والتوكل عليه عَزَّ وجل، والدعاء، والصبر، وإدراكه بأن ما يصيبه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنه مأجور على كل حال. فحاله بين الصبر والشكر. فالإسلام نعمة عظيمة من الله تعالى على عباده. فنحمد الله تعالى أن هدانا للإيمان، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله بفضله وكرمه ومَنِّهِ وإحسانه. ومن دقائق البيان أنهم حصروا كل وعود الله تعالى ورسوله في محل الغرور فحرف ﴿ مَّا ﴾ وحرف الاستثناء ﴿ إِلَّا ﴾ أفادا حصر دلالة ما بينهما من الوعد في الغرور. وهذا من شدة انحطاطهم.

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

ثم يتدرج البيان الكريم من الله العزيز الحكيم إلى كشف وإظهار ما كان من المنافقين من التخذيل للمؤمنين، لصدهم وتفريقهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ واذكر أيها النبي حين ما كان من بعض المنافقين ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي: فرقة من المنافقين

﴿ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْ ﴾ أي: يا أهل المدينة، منادين لهم بأسلوب التحذير، يا أهل يثرب، وهو الاسم السابق للمدينة، اسمعونا، وخذوا بمشورتنا لكم ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمۡ ﴾ ليس لكم موضع إقامة ولا أن تثبتوا في معركة خاسرة، فلا تجلسوا وترابطوا في موقعكم الذي كان دون الخندق ﴿ فَٱرۡجِعُواْ ﴾ فارجعوا مما أنتم فيه إلى المدينة، إلى منازلكم. إرجافا وتخذيلاً منهم للمؤمنين بأن يتركوا الرسول صلى الله عليه وسلم، وينقلبوا إلى المدينة، عائدين إليها. وقد نادوهم باسم المدينة ﴿ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ ﴾ وكان اسم المدينة سابقاً: يثرب.

ونداءهم باسم المدينة يثرب لإفادة أن الذي يجمعنا بكم هي الأرض التي نعيش عليها. بما يفيد أن ليس في قلوبهم شيء من الدين، ولا أخوة للدين، بل حصروا الالتقاء والتعاضد باسم المدينة. وهم بهذا يريدون التخذيل لهم عن الجهاد. وهي طائفة منكسرة. قال السعدي رحمه الله تعالى: فنادوهم باسم الوطن، إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية ليس لها في قلوبهم قدر. وأن الذي حملهم على ذلك مجرد الخور الطبيعي[1] فهم شر الطوائف، إذ لم يكتفوا بأنفسهم، بل امتد شرهم إلى غيرهم بالإغراء والتخذيل.

مما يفيد الحذر ممن يخذل عن الخير، ويدعوا إلى التكاسل والتراجع عن فعل الطاعات، فإذا كان هؤلاء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وبما يرون منه وفيه صلى الله عليه وسلم من دلائل النبوة، فكيف بمن بعدهم من المنافقين؟ بما يفيد الحذر من مثل هذه الطوائف الخبيثة التي تعيش في الأمة، وهي ليست مع الأمة، بل إنهم ضد الأمة، وهم عيون للكفرة من أعداء الدين، وأعداء الأمة.

وهناك طائفة أخرى من هؤلاء المنافقين يستخدمون أسلوب الاستئذان للخروج من صفوف القتال، فقال تعالى عنهم ﴿ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ ﴾ وسماهم ﴿ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ﴾ أي: فريق من المنافقين المخذلين، استخدموا أسلوب مغاير، غير أسلوب التخذيل، وهو الاستئذان، ومعللين استئذانهم كما قال الله تعالى عنهم ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴾ يقولون إن بيوتنا مكشوفة للعدو، قال مجاهد ومقاتل والحسن رحمهم الله تعالى: قالوا: بيوتنا ضائعة، نخشى عليها السراق، وقال قتادة: قالوا بيوتنا مما يلي العدو، ولا نأمن على أهلنا[2] وحقيقة الأمر أنها ليست كما يقولون ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍ ﴾ فقد كذبهم الله تعالى. بما يبين أنهم يكذبون، حيث نفى سبحانه وتعالى ادعاءهم بأن بيوتهم عورة.

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/١٤٠)

(٢) الشوكاني، فتح القدير(٤/٢٦٦) وذكر ذلك ابن جرير (١٩/٤٤) وغيره

ثم يكشف الله تعالى مرادهم بقوله عَزَّ وجل ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ فمقصدهم الفرار من المعركة. مما يبين معاناة الرسول صلى الله عليه وسلم من شدة أذى المنافقين، وتصرفاتهم الخبيثة، ومع ذلك يصبر النبي صلى الله عليه وسلم عليهم، ويتعامل معهم بحكمة. مما يعلم المؤمن أن واقع الحياة الاجتماعية في جميع دوائرها قد لا تخلوا من مثل أولئك، وأن الحكمة في التعامل معهم هو بمثل ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم في التعامل معهم. فيتعامل معهم بالظاهر مع الحذر منهم. ليتبين بهؤلاء عمق الاختلاف والفرق بين المؤمنين الصامدين، وبين المنافقين المكذبين والمخذلين.

ثم يخبر الله تعالى عن حال المنافقين فيما لو دخل جيش الأحزاب المدينة، بأنه لو طُلب منهم الرجوع إلى الشرك، لأجابوا ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ فإن هؤلاء المنافقين الذين يخذلون المؤمنين، فإنه من شدة نفاقهم، وما يُبطِنُون من الكفر ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ فيما لو دخل عليهم مقتحم من الأحزاب ثم سألوهم العودة للشرك لأجابوهم.

ومعنى ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ أي: من جانب من جوانب المدينة ونواحيها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ أي: ثم سأل الأحزاب هؤلاء ﴿ٱلْفِتْنَةَ ﴾ أي: الردة عن الإسلام، والعودة إلى الشرك، ومقاتلة المسلمين ﴿لَأَتَوْهَا ﴾ لأجابوهم، ووافقوا على مطلبهم بالمسارعة إلى الكفر ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ وما ابطؤوا واحتبسوا في الرد عليهم إلا اليسير من الوقت. قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن معنى ﴿إِلَّا يَسِيرًا ﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف[1] بما يبين السرعة في الموافقة. بما يدل على أن نفوسهم مستحبة للشرك، وطائبة به قلوبهم، ورغبتهم في الانقلاب على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين. فهذه حقيقة المنافقين في كل مكان وزمان، مما يستوجب الحذر منهم. ويفيد ذلك ويبين ما كان يعانيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنون من حال المرجفين المنافقين في المدينة، إذ يعيشون معهم، وهم يُبطنون الكفر، والعداوة للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، وللإسلام.

ثم يخبر الله تعالى عن فسادهم في المعاهدات، وأنهم أصحاب كذب وافتراء، ولا أمانة لهم، وأنهم ناقضون للعهود، بل ناقضون لأعظم عهد مع الله تعالى، ومع رسوله صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ لقد سبق منهم أن عاهدوا الله

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٢٥/٣)

تعالى من خلال معاهدتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم، بأن ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي: المثابرة على القتال، وعدم الفرار منه، وعدم التماس الأعذار. قال قتادة رحمه الله تعالى: كان ناس غابوا عن وقعة بدر، ورأوا ما أعطى الله أصحاب بدر من الكرامة والفضيلة. فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن، فساق الله ذلك إليهم، حتى كان في ناحية المدينة[١] مما يبين أن الطمع كان في تحصيل الغنائم، فكان هو الدافع لهم، وأنهم على طرفي نقيض، يحبون تحصيل الغنائم، ويرهبون ويخافون الموت، لأنهم لا يؤمنون بما هو للشهداء من الفضل والحياة والكرامة عند الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن عظيم عهد من عاهده الله سبحانه وتعالى ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ فلما أن عهد الله عَزَّ وجل عظيم الشأن، فإن الله تعالى سائل من عاهده عن ذلك العهد في الآخرة، بما يفيد أنه مُحَاسَبٌ عليه، فإن وفَّى وفَّاهُ اللهُ تعالى الثواب العظيم، وإن نكث حاسبه على نقضه العهد والميثاق مع ربه عَزَّ وجل. مما يدل ويفيد على عظيم العهود مع الله تعالى، واستشهاد الله تعالى عليها. وفي ذلك التحذير من نقض العهد، وخاصة مع الله سبحانه وتعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن مقاصدهم في الاستئذان، بأنه نتيجة مفهومهم الباطل: من أن هروبهم من القتل يحقق لهم الحياة وطول العمر. فيصحح الله تعالى هذا المفهوم لهم ولغيرهم، فقال تعالى ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قل يا أيها النبي لهؤلاء الفارين من القتال، جبناً وخوفاً من القتل، قل لهم: لن تنتفعوا من الفرار عن مواجهة العدو إن فررتم وهربتم خوفاً من حصول ﴿ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ فالموت مدرككم بحسب آجالكم، والقتل مدرك كل من حان وجاء أجله، ولن يُقتل ممن لم يحن أجله. فهروبكم ما هو إلا بسبب مفهومكم الباطل عن حقيقة الآجال. وبالتالي حال خوفكم من القتل كحال من يريد أن يهرب من الموت وهو مدركه، بل ومدرك كل من حان أجله، فلن ينفك الهارب من الموت بهروبه وبُعْدِه وتوقيه. وفي هذا تصحيح للمفاهيم عن حصول الموت لكل أحدٍ من الناس، فخوض المعركة لا يعني الموت، والهروب منها لا يعني الحياة والنجاة من الموت لمن حان أجله.

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ومعنى نفي نفع الفرار وإن كان فيه تعاطي سبب النجاة، فهو سبب غير مأذون فيه، لوجوب الثبات في وجه العدو مع النبي صلى الله عليه وسلم[٢] فالفرار لا يمتنع ولا يتأخر به

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٧/١٩)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩٢٣/٨)

الأجل المكتوب. وهو أمر في غاية الأهمية عن تصحيح مفهوم الأجل، الذي يحتاج أن يدركه كل أحد من الناس. فالمؤمن لإدراكه ذلك، فإنه يعرف أنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله تعالى له.

وفي مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ذلك البيان من الله تعالى ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ليبين لهم أن الله تعالى قد كشف لرسوله شأنهم، وأن قولهم بأن بيوتهم عورة ليس بصحيح، وأن استئذانهم هو من باب الهروب من الموت جبناً وخوفاً، ظناً منهم بأن الامتناع عن أسباب الموت كفيل بتحقيق الحياة لهم. وفي هذا آية وبيان لهم بأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول من الله تعالى، وكان هذا موجب لهم الإيمان والثبات عليه.

ثم يبين سبحانه وتعالى حالهم مع الموت حين حصل منهم الفرار ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فإن استمتاعكم بالحياة لن يكون إلا متاعاً يسيراً، التي هي مدة آجالكم، ثم يدرككم الموت. فإن فراركم من القتل لا يعني أنه لن يصيبكم الموت، فإنه ملاقيكم. ففي هذا زجر لهم على مفهومهم الخاطئ عن الموت والآجال، بأن امتداد الأجل يحصل بالبعد عن أسباب الموت، فإن السبب للموت ما هو إلا علة له، وإلا هو مقدر له، فيكون بالسبب، ويكون من غير سبب. فلن ينفعكم فراركم في مَدِّ آجالكم إلا قليلاً، والتي هي مدة آجالكم فقط، ثم يدركم الموت، بقضاء الله تعالى وقدره، الذي لا يرده الفرار من أسبابه.

ثم يستمر الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في شأن بيان أقداره، وقهره وسلطانه سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ قل لهؤلاء المستأذنين يا أيها الرسول ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ سؤال استنكار وتوبيخ لهم، وتقرير بقدرة الله تعالى وإنفاذها في عباده: من الذي يمنعكم من ربكم تبارك وتعالى ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا ﴾ أي: أراد بكم شراً ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ أو أراد خيراً بكم. سؤال تعجيز، يقررهم بأن الأمر كله لله تعالى. فمن هذا الذي يملك أن يدفع ويمنع عنكم إرادة الله عَزَّ وجل، سواء كانت نقمة وشراً بكم، أو خيراً ونعمة تلحق بكم، وموتاً أو حياة؟ فإن قلتم لا أحد، فهروبكم وفراركم إذاً من الموت يتنافى مع ما تُقرُّون به؟ وإن قلتم: لا، فامنعوا عن أنفسكم الموت حين مجيء الأجل. وفي هذا الأسلوب من الله تعالى تعليم ولوم لهم، بما يعلمهم ويعلم عموم العباد جميعاً أن ما يُقَدِّرُه اللهُ تعالى من خير أو شر لا يستطيع أحد أن يمنعه، فيحول دون وقوعه، أو يؤخره عن وقته، أو يزحزحه عن مكانه. فعليكم بالتوكل على الله تعالى، وإذا كنتم في أمر كالجهاد فاثبتوا، فالأمر كله لله تعالى، من الحياة والموت والنصر والهزيمة. مما يعلم المؤمن الطمأنينة والثبات، والشجاعة، وسؤال الله تعالى، والتوكل عليه.

ثم يقرر الله سبحانه وتعالى لهم ولغيرهم أن مراده عَزَّ وجل متحقق، فلا يمنعه ما نع أبداً ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ لا يجدون عاصم يعصمهم ويمنعهم مما يريده الله تعالى بهم. فلا يجدون من دونه عَزَّ وجل موالياً لهم، فينفعهم، ولا ناصراً ينصرهم. فتم حصر ذلك له تبارك وتعالى، فهو الناصر لمن ينصره، وهو القاهر لمن يقهره ويذله، وهو المغيث والمجير لمن يغيثه سبحانه وتعالى، فيمتنع ذلك عن غيره إلا إذا أذن له عَزَّ وجل، فسمح وأذن للأسباب. مما يعلم به عباده حقائق تدبيره عَزَّ وجل، بأنها مُلك له وحده لا شريك له تبارك وتعالى.

مما يبين ويفيد أهمية إدراك تلك الحقائق الإيمانية، فإنها تملأ القلب طمأنينة وتوكلاً عليه سبحانه وتعالى، وأنها تملأ قلب المؤمن شجاعة وإقداماً، وانشراحاً لما يقضي به الله سبحانه وتعالى من أمر وشأن، فلا كاشف لضر إلا هو، ولا مانع لخير أراده لأحد من خلقه سبحانه وتعالى أبداً، مهما تعالت الموانع. مما يغرس الطمأنينة وانشراح الصدر في قلوب المؤمنين. وهو الأمر الذي يعاني منه من كفر، ولم يؤمن، ومن لم تترسخ تلك الحقائق الإيمانية في قلبه. مما يعزز فائدة الإيمان وأثرها على نفوس المؤمنين، وأنهم يعيشون حالة فريدة من السعادة، التي لا يعرفها غيرهم.

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عن شأن المثبطين عن مناصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقرر سبحانه وتعالى معرفته بهم، فيفضح شأنهم، ويعري مقاصدهم، فقال تبارك وتعالى ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ بدأ البيان الكريم بحرف التوكيد ﴿ قَدْ ﴾ لإفادة التحقيق وتأكيد علم الله تعالى بحقائقهم. ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ إن الله تبارك وتعالى يعلم حقيقة ﴿ ٱلْمُعَوِّقِينَ ﴾ المثبطين، الذين هم في جهد واجتهاد على تثبيط الناس عن مناصرة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فيمنعونهم بأساليبهم الماكرة عن الجهاد، وتزيين الرجوع لهم عن صفوف القتال مع المؤمنين. وسماهم

سبحانه وتعالى بفعلهم ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ وهو الذي يعيق غيره بالأساليب التي تجعله يَعْدِل عن وجهته واتجاهه الصحيح إلى الاتجاه الباطل السقيم، ليثبط نشاطه، ويخمد الخير في النفوس، بما يفيد قوة الأساليب العائقة التي تثير التراجع، وتُقنع وتغير النفوس عن اتجاهها الصحيح، وهم أولئك المنافقون، وقيل اليهود. قال مقاتل رحمه الله تعالى: قيل: أنهم اليهود، دعوا إخوانهم من المنافقين إلى ترك القتال. وقال الماوردي: أنهم المنافقون دعوا المسلمين إليهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] وغالب أهل التفسير على أن المقصود بهم المنافقون. ولا يمنع حدوث ذلك من الفريقين معاً، لاتحاد نيتهم ومرادهم من نُصْرَة الشرك على الإسلام. فيكون النص الكريم قد جمع الفريقين دون تحديد وتعيين لأحدهما.

ثم يؤكد تبارك وتعالى حقيقة إعاقتهم ومرادهم بالكشف عما كانوا يقولونه لتحصيل التثبيط ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ وفي تسميتهم بإخوانهم ما يفيد قوة اتحاد العلاقة ضد الرسول صلى الله عليه وسلم، وضد المؤمنين، فهناك أخوة تجمعهم في المراد والمقصد، وهي أخوة الكفر، والعداء للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. فينادونهم ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ تعالوا إلينا، وأقبلوا علينا بإدباركم عما أنتم عليه من معية الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم. ثم يخبر عَزَّ وجل عن تأثيرهم إذا كانوا مع المسلمين بأنهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يحضرون القتال ولا يشاركون مع المسلمين إلا قليلاً، من أجل دفع الشك عنهم، ومن أجل تحصيل المنافع من الغنائم. وقد سَمَّى الله تعالى الحرب ﴿ٱلْبَأْسَ﴾ بدلالة ما يحصل فيها من الشدة والقتل، ووصف إتيانهم للحرب بالقلة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ بما يفيد أن الغالب لا يأتونها ولا يشاركون، ووردت القلة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ بأسلوب التعميم، ليشمل قلة المشاركة، وقلة الزمن والوقت في المعركة، فاستوفت جميع الحالات التي يمكن أن يكون فيها القلة في إيتائهم الحرب.

مما يفيد قوة ما كان يعانيه الرسول صلى الله عليه وسلم، وأصحابه من هؤلاء المنافقين المدسوسين بين صفوف المؤمنين، إذ يُظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر. مما يُعَلِّم المؤمن أن صفوف وصنوف الحياة مليئة بمن يثبط عن الحق والخير، سواء في الحرب، أو في غيرها من شؤون الحياة، فيلزم المؤمن بأن لا يجعل لتثبيطهم مكاناً في نفسه، وأن يمضي قُدُمَاً في مسيرته للحق والخير. كما يفيد: أنه إذا كان صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم يعانون، فكيف بمن هم دونه من المؤمنين، مما يبين أن الدنيا محفوفة بالابتلاء، وبالأعداء، وأن الحياة لا تخلوا من المنقصات. فيلزم المؤمن التعامل معها بحكمة، كما هو فعل الرسول صلى الله عليه وسلم.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨٩/٦)

ثم يكشف الله تعالى المزيد عن حقائقهم، ويعري أوصافهم، ليدرك المؤمنون خطر هؤلاء، فيحذرونهم، ويتعاملون معهم بالحذر والحكمة التي تدفع شرهم. فقال عزَّ وجل ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ فمن صفاتهم السيئة أنهم ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أي: بخلاء بالخير عليكم، مما هو في وسعهم ومقدورهم. وورد الشح عاماً ليشمل جميع أوجه البخل، سواء بالنفقة أو بأنفسهم في سبيل الله تعالى، أو بالقتال معكم، أو بمساندتكم فيما تحتاجون إليه، فمشاركتهم شحيحة، متمنعة، فما هي إلا ما يدفعون به الريبة عنهم، مع أنها واضحة جلية. وفي قصر شحهم على المؤمنين ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ ما يفيد أنهم لا يمتنعون عن غيركم ببسط العطاء، فالشح واقع منهم عليكم فقط، لما في قلوبهم من الضغينة التي امتلأت بها نفوسهم، وبالتالي فليس الشح هو سجية لهم، بل سبب الشح هو كره انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون.

ثم يصف الله تعالى حالهم عند نشوب الحرب، ووقوع البأس ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ ﴾ فإذا وردت مواطن الخوف بالحرب، واشتد البأس ﴿ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ تراهم يُصوبون النظر نحوك. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ونظرهم إليه نظر المتفرس، فبماذا يصنع؟[١] ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ خوفاً من القتل، فتكون حال عيونهم إذا نظرت إليهم غير ثابتة تجاه العدو، بل نظرهم مشدود إليك ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ فدوران عيونهم نحوك كدوران الشخص الذي غشاه الموت، بأسبابه وحاله، والمعبر عن قوة الاضطراب من الذعر، حيث يكون حاله في ذهول عقلي، وبالتالي يَشْخُصُ بصرُه، ودون أن تطرف عينه، فكذلك هؤلاء، خوفاً وجبناً من القتل، وماذا سيكون من القرار النبوي تجاه الموقف، ترقباً للقرار، وما سيكون حاله عليهم، وحالهم عليه صلى الله عليه وسلم. فإنه موقف صعب، بأن يشارك المبغض لك في صفوفك، فالموقف ليس بالسهل على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين، من أن يشارك معهم من يريد لهم الهزيمة والانكسار، ولكن إرادة الله تعالى فوق كل شيء. وفي تعامل النبي صلى الله عليه وسلم معهم، ما يعلم المؤمن، ويعلم الحاكم المسلم كيف يتعامل مع الذين على شاكلتهم.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩٢٨/٨)

وأما حالهم عند ذهاب مُوجب الخوف من القتال فإنه يكون منعطف عليكم بالسوء من الكلام ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ فإذا صاروا إلى حال الأمن والطمأنينة تعالت أصواتهم باللوم والطعن بألسنتهم في المؤمنين ﴿ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ تعالت أصواتهم على المؤمنين بالكلام السليط. فورد البيان عن حالهم وقت زوال الخوف والذعر من قلوبهم بأدق البيان والوصف والكلمات التي تستوفي دقائق الوصف، فالسلق يعني البسط في السوء، قال الراغب رحمه الله تعالى: السلق: بسط بقهر، إما باليد أو باللسان[١] يقال: سلق فلان فلاناً بلسانه، إذا أغلظ له في القول، مجاهراً. قال الفراء: أي: آذوكم بالكلام في الأمن بألسنة سليطة، ذربة. ويقال خطيب مسلاق، ومصلاق إذا كان بليغاً[٢] أي: آذوكم بالكلام الشديد. والسَّلقُ هو الأذى. مما يفيد: بسط الكلام في ذمكم بالطعن واللوم في قراراتكم وتصرفاتكم، ومجريات الأحداث التي كانت، بما يعني لو كان الأمر لنا لكنا على ما نتمنى. فإن من شدة حنقهم أن كل طعونهم كانت ﴿ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أي: بقوة شديدة، فكانت الطعون منهم بالنقد واللوم بأوصاف بذيئة غير لائقة، فجمعت أنهم كانوا لا يتورعون عن كل وصف سيء لا يليق. مما يعبر عن حنقهم وكرههم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وللمسلمين.

ومن صفاتهم أنهم عند قسمة الغنيمة يكونون أشحة من الخير، فالخير منهم قليل شحيح، قال تعالى عنهم ﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ يشاحون المسلمين عند قسمة الغنيمة، فيخاطبونكم مخاطبة الشحيح، فإنهم أشحة على المال والغنيمة. قال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم، وأسوء مقاسمة: أعطونا، أعطونا، فإنا قد شهدنا معكم، وأما عند البأس فأجبن قوم، وأخذله للحق[٣] فعند الغنيمة يرون أنهم أحق بالغنيمة من غيرهم، مع أنهم يجبنون عند القتال. فَيَدَّعُون لأنفسهم كمال الحق، ولا يعطون الحق من أنفسهم.

وفي هذا الكشف لحالهم ما يبين عظيم علم الله تعالى، إذ كشف حقائقهم، الأمر الذي يُعتبر نوعاً من أنواع العقاب لهم، بتعرية حقائقهم، وكشف ما يتظاهرون به، وما يتخفون به من السوء. وفي ذلك الكشف من الله تعالى ما يُوجِب عليهم الإيمان، والدخول في الإسلام حقيقة وليس نفاقاً، إذ أقام عليهم الحجة عليهم، من خلال تعرية ما في قلوبهم، وكشف حقيقة تعاملهم ومسلكهم. فإن الله تعالى عليم بهم، وأن هذا رسوله صلى الله عليه وسلم، قد أخبره ربه عَزَّ وجل بحالهم. مما يُوجب عليهم أن يؤمنوا بما حصل لهم من إخبار الله تعالى بشأنهم لرسوله صلى الله عليه وسلم. ولكنهم معاندون ومصرون على نفاقهم وكفرهم. وفيه تعليم للمؤمنين بمنهجه

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٢٣٩)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤/٢٧٠)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٥٤)

صلى الله عليه وسلم في التعامل مع المنافقين. وفي التحذير للمؤمنين من مسالك المنافقين في كل زمان ومكان. وتعليم للمسلمين بأحوال ومواصفات المنافقين. ففي البيان الرباني الكثير من الدروس التي لا حصر لها من كثرتها وتنوعها.

ثم يخبر الله تعالى بحقيقة إيمانهم، ثم حكمه فيهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ فهؤلاء الموصوفون بتلك الصفات السابقة لم يحصل منهم الإيمان ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ ﴾ فإنهم وإن أظهروا الإيمان فهو نفاق وليس صدقاً، وفي هذا اثبات كفرهم، وأن المنافقين صنف من الكافرين، يُظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، وبالتالي حكم الله تعالى فيهم بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ فأذهب الله تعالى أجور أعمالهم. فنكاية بهم أبطل وأظهر بطلان أعمالهم وفسادها، فأبطل أجر وثواب خروجهم مع المؤمنين للجهاد، لأنه لم يكن خروجاً لله تعالى، وعن إيمان، بل كان لتحصيل الغنيمة، وليدفعوا عن أنفسهم كشف حقائق خداعهم وتلاعبهم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن هذا الإحباط لأعمالهم بأنه أمر يسير ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ فكان إحباط أعمالهم التي عملوها أمر يسير على الله تعالى. مما يفيد أن الله تعالى لا يحبط عمل المؤمن الصادق، وأما الذي يُظهر الإيمان ويبطن الكفر، ويعمل ببعض الأعمال التي ظاهرها الصلاح، وهي قائمة على النفاق والرياء والمداراة، فإن الله تعالى لا يقبلها، ويبطلها بكل يسر. وبما يفيد التحقير والنكاية بهم، وأن الله تعالى لم يعبأ بهم. فإن الله جَلَّ جلاله غني عن العالمين، وبما يفيد التحذير من أن يُبطل الإنسان أعماله الطيبة بموجبات الإبطال، من الرياء، والنفاق، والكفر، والشرك، فكل عمل ليس على دين الله تعالى فهو باطل مهما كان ظاهره الصلاح، فإن الله تعالى يعلم البواطن وما تخفي الصدور، وليس عند الله تعالى في إبطاله ما يمنعه من ذلك.

ثم يخبر الله تعالى بحال المنافقين حين كشف عَزَّ وجل أمر الأحزاب ﴿ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ يظن هؤلاء المثبطين من المنافقين أن الأحزاب لم يندحروا بما أصابهم الله تعالى من الريح والجنود من الملائكة ﴿ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْ ﴾ يعتقدون أن الأحزاب باقون على حالهم، في تطويق المدينة، فهذا هو حسبانهم واعتقادهم وظنهم، مما يفيد: انشغالهم بأنفسهم وبُعدهم عن مدار ومواقع المؤمنين، وموقع الأحزاب، الأمر الذي يكشف جبنهم وخوارهم وذعرهم. كما يبين أن الثبات كان من المؤمنين فقط. بينما هؤلاء يحسبون الأحزاب لم يذهبوا، والأحزاب قد تولوا هاربين. فمعتقدهم مخالف للحقيقة.

ثم يخبر الله تعالى عن حالهم فيما لو عاد الأحزاب إلى المدينة ﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ ﴾ ولو عاد الأحزاب إلى المدينة محاربين، لتمنى هؤلاء المنافقون أنهم ﴿ بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ ﴾ أي: غائبون بين أعراب البادية، خارج المدينة، من شدة خوفهم وجبنهم. مما يبين ويفيد أن الإيمان يخلق الشجاعة والإقدام بأمر الله تعالى وتوفيقه، وأن الكفر والنفاق يخلق في النفس الخوف والذعر، والبحث عن أسباب الوقاية والتوقي، لأن الكافر لا يرى الحياة إلا في هذه الدنيا، وإذا مات انقطع عن الحياة، بينما المؤمن يتقوى بلقاء الله تعالى، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون. فيتمنى المنافقون أن يكونوا خارج المدينة، يتنقلون بين الأعراب، ويترقبون أخباركم ﴿ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾ فيسألون عن أخباركم أيها المؤمنون وهم في بُعد عنكم. وهذا تأكيد على أنهم يتمنون المكوث خارج المدينة حتى تنتهي إليهم الأخبار، فيقررون بعدها ما يكون من أمرهم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن حالهم فيما لو عاد الأحزاب وكانوا مقيمين في المدينة ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فلو كانوا فيكم لامتنعوا عن القتال معكم إلا بالنزر اليسير الذي يدفع عنهم الملامة والشك في أمرهم، ولمن له رغبة في الغنائم. مما يفيد كثرة الجبن فيهم، وقلة الشجاعة بينهم. مما يؤكد أن الشجاعة عند أهل الإيمان متحققة، لمعرفتهم بالعاقبة العظيمة من الله تعالى لهم.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾
وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ
إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم
مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ
يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن
صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

بعد أن كشف عَزَّ وجل حال المنافقين وتعريتهم، حتى أظهر ما يضمرونه في أنفسهم، لينتقل السياق بعد ذلك إلى بيان حال المؤمنين بالمدح والثناء عليهم من ربهم عَزَّ في علاه، مبتدئا سبحانه وتعالى ذلك بالثناء على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، بأنه يمثل القدوة الحسنة لمن كان هدفه وغايته الآخرة. فيقول الله تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ يُوجه اللهُ تبارك وتعالى المؤمنين إلى الاقتداء والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم. مُبتدئاً الخطاب والتوجيه الكريم بحرف التأكيد والتحقيق ﴿ لَّقَدْ ﴾ الذي يفيد أن ما بعده من بيان هو إخبار وتوجيه مؤكد ومتحقق بأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم منذ بُعث وهو متصف ومتمثل بكل ما يجب أن يكون عليه الرسول، فعليكم أن تلزموا جميع نهجه، في أقواله وأفعاله وجميع سيرته. ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

وقد امتدح عَزَّ وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه يمثل الأسوة التي يجب أن تتأسون بها، فهو عليه الصلاة والسلام ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ متصف بالْحُسن في كل شأن وأمر، بما ينفي عنه صلى الله عليه وسلم كل عيب ونقص، بل إن شخصيته هي القدوة الحسنة السوية التي رضي الله عنها، حتى وصفها بالحسن. وفي هذا تزكية عظيمة للرسول صلى الله عليه وسلم في جميع أفعاله وأقواله، فقطع بذلك كل رأي، وكل مناقشة لأحد فيها، فإنها شخصية نبوية مُزَكَّاةٌ من الله تعالى. وفي هذا ما يبين أن من أراد الهدى وكمال الأخلاق فعليه بأن يتأسى ويقتدي بالرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم يذكر ويبين سبحانه وتعالى بأن نهجه وسيرته التي زكاه بها ربه تبارك وتعالى هي المؤدية إلى الفلاح والفوز والنجاح في الآخرة ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ففي منهج الرسول صلى الله عليه وسلم، وسيرته العطرة الفلاح لمن يرجو أن يفوز بالدار الآخرة، التي فيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ وذكر الله كثيراً. أي: أكثر من ذكر الله عَزَّ وجل في السراء والضراء، وفي الخوف والرخاء والشدة. بما يفيد أن الملازمة لذكر الله تعالى تجعل المؤمن في يقظة مستمرة، فتعينه على الاقتداء والتأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم. كما يقرر ويدل ذلك على أن ذكر الله تعالى ركيزة أساسية وملازمة للاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، فبينهما ارتباط وتلازم. وفي إفراد ﴿ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ من بين عموم مفردات وصنوف الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم لبيان الأهمية والمبالغة في شأن الذكر، بالرغم من أن ذكر الله تعالى داخل في الاقتداء. لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر الناس ذكراً لله تعالى. فإفراد الذكر ﴿ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ لبيان أهميته، وتأكيده من بين جميع عبادة الرسول صلى الله عليه

وسلم المملوءة بالذكر. وقد أفاد قوله تعالى ﴿ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ الكثرة والمبالغة، والملاحقة للذكر، فيلحق بعضه بعضا، بالاستمرار والديمومة وعدم الانقطاع. ويجمع البيان عموم ذكر الله تعالى، من: التسبيح والتهليل والتكبير، وتلاوة القرآن الكريم، وكذلك تستوعب أداء النوافل، والدعاء وأداء الفرائض في السراء والضراء. وتعتبر هذه الآية قاعدة للمؤمنين، وقاعدة وحجة في أن الفلاح معقود بمتابعة النبي صلى الله وعليه وسلم، مع الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى.

وفي ورود هذا التوجيه الكريم من رب العالمين في أثناء عرض سورة الأحزاب، ليتبين لهم ولغيرهم التطبيق العملي في أحلك الظروف للنبي صلى الله عليه وسلم، من الإيمان، والثبات، والدعاء، والصبر، والرجاء، وانتظاره الفرج، وجهاده ومجاهدته، ومرابطته، وحكمته، وفي منهجية التعامل مع أصحابه، ومع المنافقين التي امتلأت بالحكمة.

ثم يمتدح الله تعالى المؤمنين بتصديقهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ فلما رأى المؤمنون أحزاب الكفر قد تمالأت وتكالبت عليهم، لم يفروا، ولم يقولوا بمثل ما قال المنافقون بل قالوا بما أثبته الله تعالى لهم من المدح والثناء والتزكية العظيمة ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ فعندما شاهد المؤمنون تكالب أحزاب الكفر عليهم ﴿ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة رحمه الله تعالى: يعنون قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ أي: هذا ما وعدنا الله تعالى ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب[١] فهو الإيمان بما سيكون، وتقريره في أنفسهم عندما يكون، مما يفيد أن الابتلاء والتمحيص قد واجه الصحابة رضي الله عنهم، فكيف بمن هم دونهم ممن بعدهم من التابعين إلى يوم القيامة. فإنها حقائق ثابتة عن الله تعالى، جرت على خير الأصحاب، مما يعطي المؤمنين أسوة بأولئك الأصحاب الأطهار رضي الله عنهم.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٨٣)

ولذلك امتدحهم الله تعالى بهذا الثناء، بل سماهم بالمؤمنين ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ ﴾ وهذه تزكية عظيمة بأن الله تعالى أثبت لهم الإيمان. رضي الله عنهم.

وقال المؤمنون كذلك عند رؤيتهم للأحزاب ﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ وصدق الله تعالى ورسوله فيما بينوه من الابتلاء والتمحيص والاختبار، فأكدوا بالتصديق لما أخبرهم به الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. بعكس أولئك المنافقين الذين قال الله تعالى عنهم ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ فشتان بين المكذبين وبين الصادقين المصدقين. فكان هذا الابتلاء للمؤمنين زيادة لهم في الإيمان والاستسلام والانقياد ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ فازدادوا بما رأوا من تحزب الكفر عليهم إيماناً وتصديقاً، لموافقة الحدث لما أخبرهم الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم من الابتلاء. وكذلك زادهم تسليماً ﴿ وَتَسْلِيمًا ﴾ أي: الانقياد والطاعة، والاستسلام لقضاء الله تعالى وقدره، وانقياداً لأمره وبما سيقضيه فيهم. فلم يتزعزعوا، ولم تتوارد إليهم الشكوك، بل كان الإيمان والاستسلام هو المسيطر عليهم.

وفي البيان إفادة الحصر والقصر، بما النافية ﴿ وَمَا ﴾ وأداة الاستثناء ﴿ إِلَّآ ﴾ فقصرت أثر تلك الأحداث المخيفة على أنه لم يحصل في قلوبهم إلا زيادة الإيمان عما هم عليه، فلم يُداخلهم أدنى شك. ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ مما يبين الفرق بين المؤمنين الذين امتلأت قلوبهم إيماناً ويقيناً وثباتاً وطمأنينة، وبين المنافقين الذين سيطر عليهم الذعر والخوف والإرجاف والارتجاف، فأرجفوا بأفعالهم وأقوالهم، كالاستئذان بقولهم: إن بيوتنا عورة وهي ليس بعورة، وقولهم: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا. مما يبين منزلة الإيمان وأثره على القلب، وعلى السكينة النفسية، وعلى القرارات، والأقوال والأفعال. فإن نعمة الإيمان لا تُوزن ولا تُقدر بثمن أبداً من أثمان الدنيا. فنسأل الله تعالى إيماناً صادقاً ثابتاً، وقلباً خاشعاً، ولساناً ذاكراً، وخاتمة صلاح وفلاح ونجاة لنا وللمسلمين أجمعين.

ثم يزيد الله تعالى المؤمنين مدحاً وثناء، بما كشفه عن حالة إيمانهم وتصديقهم، مع الحظوة بتزكيتهم والثناء عليهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ فمن المؤمنين رجال أوفياء، قد أوفوا بما عاهدوا الله تعالى عليه مع رسوله صلى الله عليه وسلم. فسماهم مدحاً لهم بالرجال ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ ﴾ فوصفهم بالرجولة، التي اتسمت بالوفاء

والصدق، وسماهم كذلك بالمؤمنين، فأثبت لهم الإيمان، وهي شهادة من الله تعالى عظيمة المنزلة والقدر والمكانة، وما يتبعها من الثواب العظيم ﴿ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡـهِ ﴾ كانوا أوفياء في الوفاء بالعهد، فَصَدَقُوا ولم يكذبوا، بثباتهم على ما عاهدوا الله تعالى عليه من نصرة دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم بكل ما يملكون، حتى بأنفسهم، فمن هؤلاء الصادقين الموفون بعهدهم من استشهد ﴿ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ ﴾ فمنهم من قضى أجله في الجهاد ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ ومن هؤلاء المؤمنين الصادقين من ينتظر أجله على ما عاهد عليه الله تعالى، وعلى ما يكون عليه من إرادة الله تعالى، سواء كان أجله في الجهاد أو بغيره من الأسباب، بما يفيد أنهم ثابتون على العهد والميثاق إلى أن يتوفاهم الله تعالى ﴿ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلًا ﴾ ومن صفاتهم الإيمانية أنهم لم يغيروا ويبدلوا ما عاهدوا الله تعالى عليه، مما يفيد زيادة إثبات صدقهم الذي قال الله تعالى عنه ﴿ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡـهِ ﴾ فأثبت وأكد اللهُ تعالى صدقهم إلى درجة نفي التبديل والتغيير لعهدهم، بل أفاد قوله تعالى ﴿ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلًا ﴾ المبالغة في نفي التبديل والتغيير منهم للعهد والميثاق، فهو نفي لأي درجة أو نوع من العهد، فلم يُخلوا بشيء منه بتاتاً.

ثم يخبر الله تعالى بجزاء المؤمنين، وجزاء المنافقين ﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي: فإن علة وسبب أمر الله تعالى بالجهاد ليجزي الصادقين جزاء صدقهم ﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ ﴾ أي: يجزيهم على وفائهم بعهده عَزَّ وجل، بخير الجزاء وأعظمه على صدق ما عاهدوا الله تعالى عليه. وقد وصفهم بالصدق ﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ وهذه تزكية عظيمة من الله تعالى لهم. بينما قال تعالى عن المكذبين؛ المنافقين ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ ﴾ فيعذبهم بأن لا يوفقهم للتوبة إن شاء، حتى يستوجبوا بذلك العذاب بنفاقهم وكذبهم، ونقضهم للميثاق الذي ماتوا عليه ﴿ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أو يتوب عليهم، بأن يوفقهم للتوبة مما كان منهم من الكفر، فيؤمنوا، ويَصْدُقُ إيمانهم، ويموتوا على الإيمان الصادق.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى ﴿ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي: يتوب عليهم من نفاقهم فيهديهم للإيمان، وعن قتادة رحمه الله تعالى: إن شاء أخرجهم من النفاق إلى الإيمان. وقيل معنى ذلك: ويعذب المنافقين بأن لا يوفقهم للتوبة من نفاقهم، حتى يموتوا على كفرهم إن شاء، فيستوجبوا بذلك العذاب، فالاستثناء هو من

أجل التوفيق، لا من العذاب إن ماتوا على نفاقهم[١] أي: يعذب المنافقين إن شاء تعذيبهم، فلا يوفقهم للتوبة قبل موتهم. فيموتوا على الكفر، فيستوجبوا عذاب النار. أو يتوب عليهم بأن يوفقهم للتوبة قبل موتهم، ويهديهم للإيمان، وبالتالي لا يعذبهم بما هداهم للإيمان والطاعة والعمل الصالح. مما يفيد ويدل على اطماعهم في التوبة، والاهتداء، طالما أنهم على قيد الحياة. مما يدل على رحمة الله تعالى، حتى مع من نقض العهد، فيرغبه عَزَّ وجل في التوبة والرجوع إلى الحق. بل حتى الآية قد ختمها الله تعالى بتأكيد الاطماع للمنافقين بالتوبة والهداية، وقد رأوا كيف هزم الله تعالى الأحزاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إن الله تعالى متصف بالمغفرة لمن استغفر وتاب إلى ربه عَزَّ وجل، مهما كان إسرافه في الذنوب والمعاصي. وكذلك متصف بالرحمة إذ يدلهم على التوبة ويوفقهم لها لمن اتعظ بمواعظ ربه جَلَّ جلاله، ثم يقبلها منهم، ويستر عليهم ما كان من ذنوبهم. وهذا من عظيم رحمة الله تعالى إذ يحث العصاة على التوبة، ويرغبهم فيها.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إنما يختبر عباده بالخوف والزلازل، ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، وامر هذا بالفعل، مع أنه سبحانه وتعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم. كما قال تعالى في سورة محمد ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ فهذا علم بالشيء بعد كونه، وإن كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده[٢] مما يبين أن الله تعالى عالم بما سيكون من العبد، قبل أن يعمل العبد، ولكن لا يؤاخذه حتى يعمل به. مما يستلزم من العبد أن يلتجئ إلى الله تعالى طيلة حياته، فيلوذ به، مستعيناً بعونه، وتوفيقه وهدايته. فما أفقر العبد لربه في كل شيء، مهما كبر، ومهما صغر.

ثم يخبر الله تعالى عن عظمة تدبيره، وقوة سلطانه وقهره، بأن أرجع الأحزاب على كثرتهم خائبين ومنكسرين ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ لقد رد الله تعالى الأحزاب بقوة سلطانه وتدبيره وحكمته خائبين مغتاظين، فلم تنفعهم قوتهم وكثرة جموعهم، ليبين للعباد أن القوة له سبحانه وتعالى، وأن الحكم له عَزَّ وجل، فَيُظهِر آية النصر جلية، مُثبِتَاً أن محمداً رسول من عند ربه لعباده، فهزيمة الأحزان آية من آيات الله عَزَّ وجل الظاهرة البائنة، والحجة البالغة.

بل كان الرد ملازم لتحصيل الغيظ لهم ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾ فكان الغيظ ملتصق ومتلبس وملازم لهم مما حصل من شدة النكاية بهم، لأنه لم يشف صدورهم بتحقيق ما كانوا يطلبون ويريدون، وكذلك

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٨/١٩)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٨٥/٣)

﴿ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ ﴾ لم يحصلوا على أدنى شيء من الخير، فنفى عنهم سبحانه وتعالى تحصيل أي شيء من الخير، وأثبت أنه قد نالهم الغيظ الذي يعني ويفيد تحصيل الكمد والحسرة، وقوة القهر الذي نالوه بهزيمتهم في مواجهة الحق، بالرغم من قوة تحزبهم ببعضهم البعض حتى أحاطوا بالمدينة. مما يبين أن الله تعالى إذا أراد نصر المظلوم جعل الظالم في أسوء حال. مما يعزز إيمان المؤمن، ويدرك أن الله تعالى على كل شيء قدير. بل ويغرس فيه شجاعة الإيمان في مواجهة التحديات، والصبر الذي يعقبه الفرج، وأن الأمور مهما تكالبت فإن الله تعالى هو الذي يجليها بقدرته وحكمته. فما على المؤمن إلا أن يستصحب هذه المعاني في جميع فروع الحياة، في التجارة، والمهنة، ومع الأعداء، وفي كل دائرة من دوائر الحياة، مهما صغرت ومهما كبرت. كما يفيد ويعزز إرادة الحاكم المسلم مع من يناجزونه، ويكيدون له وللمؤمنين المكايد.

ثم يذكر الله سبحانه وتعالى كريم امتنانه على المؤمنين ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ ﴾ وبهذا الرد والطرد للأحزاب، بما أرسله عَزَّ وجل من الريح والجنود من الملائكة، فقد رد الله تعالى عن المؤمنين كُلْفَة وتكلفة القتال، فلم ينقص من عددهم شيء إلا ستة منهم قد استشهدوا. ونسب الله تعالى ذلك له عَزَّ وجل، ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ ﴾ بأنه هو الذي نصركم وكفاكم بأس القتال، وذلك بما دبره للأحزاب من الريح والجنود من الملائكة. فكان ذلك آية قائمة بذاتها، بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن هذا الدين هو دين الله تعالى، وأن من اتبعه هم الغالبون والفائزون في الدنيا والآخرة. وأن غيرهم هم الخاسرون للدنيا والآخرة. وفيه أن الله تعالى ينصر دينه، وينصر من ينصره، ويذل من يعادي دينه وأولياءه. ومن جليل الوصف أن سماهم الله تعالى بأعظم الأوصاف والتزكية، فسماهم المؤمنين.

ثم يذكر تبارك وتعالى قوته من خلال بيان صفاته العظيمة المهيبة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴾ فإن الله تعالى متصف بالقوة، التي تعني كمال القدرة على تحصيل الشيء وفعله وإنجازه واتمامه. كما أنه تبارك وتعالى مع قوته ﴿ عَزِيزٗا ﴾ بالعظمة والمنعة. وأنه الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. بما يفيد فارجوا ربكم، واعتمدوا عليه في نصره وفي كل شيء، وكذلك فاحذروا معصيته، فإنه قوي عزيز.

ثم يتجه الخطاب والبيان الكريم إلى شأن اليهود الذين كانوا في المدينة، فيجلي ويكشف ما أصابهم به سبحانه وتعالى من الرعب الذي حل بهم، لنقضهم الميثاق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، واندحار الأحزاب الذين كانوا يوالونهم، ويتوقعون انتصارهم لكثرة جيوشهم وجنودهم، فقال تعالى ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ

﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ فبقوته وعزته تبارك وتعالى أنزل اليهود الذين ظاهروا الأحزاب ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم. والصيص: الحصن، وكل شيء تحصن به الإنسان فهو صيصته. ونسب الله تعالى أولئك اليهود من بني قريظة إلى الكتاب ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى أنه: يعني من أهل التوراة، وكانوا يهوداً، وعني بذلك بنوا قريظة، وهم الذين ظاهروا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] وفي نسبتهم للكتاب، ما يعني اللوم والتشنيع لهم، فأنتم أهل كتاب، تعرفون الحق، ومع ذلك تنكرونه، وتعاضدون الباطل. وهذا الحدث العظيم يبين عظيم قدرة الله تعالى، وكشفه لليهود، وإظهار وإعلان مكرهم، وقدرته عليهم، بأن أخرجهم من حصونهم التي يتحصنون بها، بل قذف في قلوبهم الرعب. مما يبين أن الرعب جُند من جنود الله تعالى.

ومما عاقبهم الله تعالى به، هو إضعافهم؛ بأن ألقى الرعب والخوف في قلوبه ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ فأنزل في قلوبهم الرعب والخوف من المؤمنين. فقد ألقى سبحانه وتعالى الهلع والخوف والرعب في قلوبهم، الذي هو موطن التأذي بالرعب، فينعكس أثره على تفكير وقرارات الإنسان، وعلى هيئته وتصرفاته وقراراته. فيجعل الرعبُ بمن أصابه في أسوأ الأحول وأظهرها. ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ تقتلون منهم جماعة، وهم الذين قتلهم الرسول صلى الله عليه وسلم حين ظهر عليهم ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وتأسرون منهم جماعة، وهم نساؤهم وذراريهم الذين سَبَوْهُمُ المؤمنون بعد مقاتلتهم.

وقد لخص الزمخشري رحمه الله تعالى هذه الحادثة، وبمثل ذلك ذكر أهل التفسير، وملخص تلخيصه هو: أنه بعد أن فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من معركة الأحزاب، جاءه جبريل عليه السلام، وقال له: إن الله يأمرك المسير إلى بني قريظة، وأنا عامد إليهم، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (تنزلون على حكمي؟) فأبوا. فقال: (على حكم سعد بن معاذ؟) فرضوا به. فقال سعد رضي الله عنه: حكمت فيهم أن تقتل مقاتلهم، وتُسبى ذراريهم، ونساؤهم. فكبر النبي صلى الله عليه وسلم، وقال (لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة، ثم استنزلهم، وخندق في سوق المدينة خندقاً، وقدمهم، فضرب أعناقهم[٢] وفي هذا جزاء لما كان منهم من نقض العهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم ومع المؤمنين، وخيانتهم، والتفافهم وتعاضدهم مع الأحزاب. فهي خيانة عظيمة، فنالوا جزاءهم بما يستحقون.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧١/١٩)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٥٣٠/٣) وبمثل ذلك ذكر أهل التفسير.

ثم يحكم الله تعالى للمؤمنين بأن يرثوا جميع أملاك بني قريظة، فقال تعالى ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ والمراد بالأرض كل ما عليها ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾ العقار، والنخيل، وما عليها. والمراد بقوله تعالى ﴿وَدِيَٰرَهُمْ ﴾ المنازل والحصون. والمراد بقوله تعالى ﴿ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾ الحلي، والأثاث، والمواشي، والسلاح، والدراهم والدنانير ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ واختلف المفسرون في تعيين هذه الأرض المذكورة. فقيل: إنها خيبر، وقيل: أنها مكة، وقيل: أنها فارس والروم. وقال عكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة[١] وهذا من فضل الله تعالى، بأن حكم لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، وبشرهم، وأعطاهم بأمره وتدبيره، ونصرهم على من عاداهم وخذلهم. مع البشارة المستقبلية بالفتوحات ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ لديار عديدة من غير تحديد، بما يفيد الكثرة.

ثم قال تبارك وتعالى في ختام الآية الكريمة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ فيقرر سبحانه وتعالى للعباد بأنه عَزَّ وجل لا يعجزه شيء، وأن كل شيء تحت قُدرته وسلطانه وقهره، ومن ذلك أن نصرهم، وكذلك أخبرهم بما كانت عليه قلوب اليهود من الخوف والرعب، وأنزلهم من حصونهم. فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، بما يفيد الترغيب في طاعته، وتحقيق المطالب، وكذلك التحذير من معصيته، فإن قدرته عَزَّ وجل تشمل كل شيء، فاطلبوا عونه بقدرته، ولا تيأسوا، وحذروا مخالفته سبحانه وتعالى.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان ما يجب على زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٧٤/٤) ملخص

بدأ التوجيه الكريم لهن من خلال مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ وجه الخطاب تبارك وتعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ وورد الخطاب بالنداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ لإفادة شد الانتباه، ولإظهار النبي صلى الله عليه وسلم بأنه هو المسؤول عنهن ﴿ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾ جميعاً، من غير تحديد ولا تعيين، لإفادة أن هذا البيان من رب العالمين لجميع زوجاته صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عنهن ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ﴾ فيه تخيير لهن بين أمرين: الخيار الأول ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا ﴾ إن كنتن تفضلن الحياة الدنيا ورحابتها، ورفاهيتها ونضارتها، والتنعم بها، الأمر الذي ليس هو في بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فترغبون في ذلك على الزهد في البيت النبوي ﴿ فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ ﴾ فأقبلن أمتعكن متاع الطلاق ﴿ وَأُسَرِّحۡكُنَّ ﴾ بالطلاق والمفارقة الزوجية ﴿ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾ ويكون هذا التسريح خالياً مما يكدر خواطركن، لأنه تسريح بإحسان جميل، في طريقته، وفي كل جوانبه، فهو خال من كل ما يسوء، ومن كل ضرار يضر بكن.

ومن جميل المنهج الرباني في توجيه النبي صلى الله عليه وسلم، وتعامله مع زوجاته أن البيان الرباني لم يُظهر ويكشف السبب الذي حصل منهن، وذلك ستراً عليهن، وإبعاداً لهن من أن ينكشف شيء مما حصل بينهن وبين الرسول صلى الله عليه وسلم. ليُعَلِّم المؤمنين أهمية ستر الحياة الزوجية، وعدم بث ما يكون خارج المنزل. وليبين أن الطبيعة البشرية واحدة، ولكن تختلف في معالجة الإنسان لها. وأن هناك اختلاف بين استيعاب الدنيا وزينتها، وبين الانغماس فيها. غير أن أهل التفسير ذكروا: أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، سألنه شيئاً من عرض الدنيا، وطلبن منه زيادة في النفقة، وآذينه بغيرة بعضهن على بعض، فآلى رسول الله صلى الله عليهم وسلم شهراً، وصَعِدَ إلى غرفة له، فمكث فيها، فنزلت هذه الآية[1] فلو لم يذكر ذلك الصحابة لمعرفتهم بالشأن لما عرف أحد عن ذلك شيئاً. فقد كنى الله عنها بإرادة الحياة الدنيا وزينتها، ولم يُفَصِّل في النوع. مما يبين ويفيد أنه عند الإصلاح، وعند الشكوى، يجب بأن لا يفصل التفصيل الذي لا يقوم عليه حكم، ويُكتفى بالدلائل فقط. مما يعلم الناس أدب الستر، وأدب الحديث عن الغير، وستر البيوت.

كما أفاد البيان الكريم من الله العزيز الحكيم، أن للزوجة الخيار بين قبول واقع الحال، وبين طلب الدنيا وزينتها بالمفارقة. كما أفاد أن الدنيا مليئة بكثرة الزينة الجاذبة المتنوعة، وأن الإنسان إذا كان يجري وراءها، ربما تفوته الدرجات العليا من الآخرة. كما أفاد ذلك أهمية الانتباه واليقظة لمفاتن الدنيا، فلا يجعلها السبب في فوات الآخرة.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٥/٦)

كما أفاد ذلك البيان سماحة التشريع في دين الله تعالى، أولاً بالتخيير، ثم أن المفارقة تكون بأجمل وأحسن ما تكون بين الزوجين ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ بما يفيد أن الحياة الزوجية ليست مبنية على القهر والذل، بل مبنية على القبول، وعلى التعايش، وفي حال الطلاق والمفارقة يكون بأحسن ما تكون عليه المفارقة، من غير أذية ولا كيد، بل على النقيض من ذلك ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ ذلك التسريح المحفوف بالتكريم. مما يعلم الأمة كيفية التعايش الأسري، وكيفية المفارقة، وأن الحياة بين الزوجين بالموافقة، والتقبل، والصبر على الطاعة، وأن تكون مبنية على إرادة الآخرة، وأن الأفضل للزوجة الصبر على بيت الزوجية المبني على الصلاح، وبأن لا تفرط فيه، وأن عاقبة الزهد خير لها من رفاهية الدنيا وزينتها.

ثم يطرح أمامهن الخيار الثاني: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وإن كنتن لا ترغبن في التسريح والمفارقة، ولا تؤثرون الحياة الدنيا وزينتها، بل تؤثرون ثواب الله تعالى، وعشرة الرسول صلى الله عليه وسلم، بالصبر والطاعة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فإن الله تعالى أعد للاتي يعملن الأعمال الصالحة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ثواباً لا يمكن وصفه من عظمته، فلا يمكن قياسه وتقديره بقدر إحسانكن، فإنه يكفي هذا الأجر تعظيم الله تعالى له، ووصفه بالعظيم، الذي يفيد المبالغة، بالوصول إلى منتهاه وذروته، بأن يكن مع النبي صلى الله عليه وسلم في أعلى درجات الجنة. مما يبين للزوجة المسلمة أنه إذا وفقها ربها في زوج صالح، فعليها الصبر على شظف العيش معه، لتقتدي وتتأسى به في صلاحه، وتنال أجر صبرها ورضاها بواقعها.

فتناولت الآية التفضيل والتفاضل، فهناك تفضيل، وهناك تفاضل، وهناك تخيير، ليعلمن أن الحياة الدنيا ليست بدار مستقر، بل هي من أجل العمل للدار الآخرة التي هي دار القرار. وليعطي هذا البيان من الله تعالى المؤمنين منهجية التعامل، ومنهجية الإحسان، ويتعلم منها بقية نساء المؤمنين هذه المنهجية الربانية، وهذه المنهجية النبوية، وكذلك يتعلمن أن خير النساء قد اخترن الحياة الآخرة على الدنيا، وامتثالاً للحق والخير الآجل، وقدموه على الخير الفاني. فإن بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وسيرة زوجاته مدرسة للحياة الزوجية الكريمة الفاضلة.

ثم يخبر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم، بأنهن لسن مثل بقية النساء، بل لهن خصوصية وميزة، اكتسبنها من خصوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ

﴿مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ يا نساء النبي من تأتي منكن بمعصية ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ ظاهرة، ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ يتضاعف العذب لها مرتين، وذلك لمكانتهن الرفيعة، التي ارتفعت معها قوة العقوبة، فالمعصية منهن تؤثر على بقية نساء المؤمنين، لأنهن القدوة والأسوة للنساء، مما يبين أنه كلما اعتلى شأن الإنسان كان لتصرفاته أثر على الغير، من خلال الاقتداء والتشبه والتقليد، لأنه في نظر الناس أنه الأسوة، وأنه محل ومحط التقليد. فيلزمه التحرز، إذ يقلده غيره فتكثر الآثام عليه، كما تكثر حسناته إن كان أسوة حسنة.

ومن دقائق البيان الكريم أنه سبحانه وتعالى عمم الفاحشة ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ﴾ لتستوعب جميع أنواع الفواحش، وهو ما يعاقب عليه الشرع، وتشمئز منه النفس، وتنفر منه الطباع والعقول السليمة الصحيحة. كما وصف سبحانه وتعالى الفاحشة بأن تكون ظاهرة ﴿بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ لا لبس ولا تهمة فيها، بل واضحة ظاهرة. مما يبين أن كل عقاب يقع بوقوعه وتحصيله، وليس بمجرد التهمة.

وقد ورد البيان من الله تعالى مباشرة لهن، بخطاب منه عَزَّ وجل لنساء النبي عليه الصلاة والسلام ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ لبيان مكانتهن، وبيان أهمية ما خاطبهم به تبارك وتعالى. كما نسبهم عَزَّ وجل إلى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ وهي مكانة شريفة عظيمة عالية، فإنكن نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فلستن كأحد من النساء. وفيه لفت الانتباه، والتشجيع والحث، والترغيب إلى كمال وتمام الانقياد والطاعة، والحذر من كل شائنة. وقد كُنَّ رضي الله تعالى عنهن كما أمر سبحانه وتعالى، وعلى ما يحب صلى الله عليه وسلم. فنعم الأزواج زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، فرضي الله عن أمهات المؤمنين. مما يعلم المؤمنين منهج التشجيع وأهميته، وأهمية بيان الخصوصية، وبيان ما يجعل المرأة تتشجع على الخير، وتقاوم الباطل من كل وجه، وما يبني فيها الاعتزاز بدينها، فإن المؤمنة ليست كالكافرة أبداً، فيلزمها ما يلزم جميع المؤمنات من شريعة الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى بأن هذا الحكم والتخصيص لهن هو أمر يسير على الله تعالى ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ وفي ذلك تحضيض وترغيب، وفي نفس الوقت فيه تهويل وتحذير، فإن الله سبحانه وتعالى لا يستعظمه شيء، لكونكن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، فليس ذلك بمغني عنكن شيئاً، فكما وفقكن ربكن بأن تكونن زوجات لرسوله صلى الله عليه وسلم، وما يجب عليكن من حقه من وجوب اجتناب المعاصي والطاعة، فإنه كذلك يقرر لكن من العقوبة ما يماثل هذا التكريم والاصطفاء، بأن أصبحتن زوجات

لرسوله صلى الله عليه وسلم، فأعظم بها من مكانة ومنزلة، لا تدانيهن منزلة لغيركن من النساء. فاحفظوا تلك المنزلة، وحافظوا عليهن.

ثم يزداد الإكرام من الله تعالى لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن، بمضاعفة الأجر والمثوبة، لمن تطيع الله تعالى، وتلزم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ فمن تلتزم منكن الطاعة يضاعف لها الأجر مرتين. وسَمَّى الله تعالى الطاعة بالقنوت، لأن القنوت يجمع دلالة دوام الطاعة والامتثال، والخضوع ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فمن منكن تلتزم الطاعة لله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ وهو العمل بشريعة الله عَزَّ وجل، المتضمن الوفاء بما أمر الله تعالى به ﴿ نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ أي: يضاعف لها أجرها مرتين. فكما تضاعف لها العقوبة في الفاحشة، يضاعف لها الثواب عند الطاعة، عدل من الله تعالى لهن. مما يدل على خصوصية نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ومكانتهن، وأنهن مكان القدوة للنساء المؤمنات.

ومن مزيد التكريم أن أسند الإيتاء مباشرة له سبحانه وتعالى ﴿ نُّؤْتِهَآ ﴾ تشريفاً وتكريماً. وكذلك ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ وهو دخول الجنة، مقاماً كريماً وعظيماً. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم، في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش[١] وهذا إكرام عظيم لهن بمرافقة النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا التكريم لأمهات المؤمنين، هو تكريم للنبي صلى الله عليه وسلم من ربه عَزَّ وجل، بأن أكرمهن بالمزيد من الإكرام لطاعتهن الله تعالى، وطاعتهن الرسول صلى الله عليه وسلم، بل قَرَنَ عَزَّ وجل بين طاعته وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ وهذا من عظيم رحمة الله تعالى، وكرمه وفضله، وعظيم منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٩٠)

أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

ثم يزداد التدرج في بيان مكانة أمهات المؤمنين، ومنزلتهن، والخصوصية التي اكتسبنها، كونهن زوجات للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى ﴿ **يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا** ﴾ يخاطب الله تعالى أمهات المؤمنين مباشرة ﴿ **يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ** ﴾ فَيُعَرِّفُهُن بما انتسبوا إليه من الفضل والشرف، بأنكن نساء النبي، وبصيغة النداء ﴿ **يَٰنِسَآءَ** ﴾ ليفيد الانتباه إلى أنكن غير النساء الأخريات، فإنكن نساء النبي صلى الله عليه وسلم. ﴿ **لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ** ﴾ لستن كغيركن من النساء. فانتفت المساواة لهن بغيرهن من النساء. فأنتن قد تشرفتن بأنكن نساء نبي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبالتالي فإن نظرة غيركم إليكن ليست كنظرتهم لبقية النساء. فنفى البيان مماثلتهن لغيرهن من النساء. بما يفيد أن عدم المماثلة قد استوجبت لكن خصوصية خاصة، كمضاعفة العقوبة، ومضاعفة الأجر. كما يفيد هذا أنه كلما زاد مقام الإنسان في الإمامة والاقتداء زاد الاقتداء والتأسي به، فيكثر تبعاً لذلك أجره بمن تأسى واقتدى به، ويكثر أيضاً إثمه بمن تأسى به في الباطل والمعصية.

ثم يحرضهن ويشجعهن ويرغبهن سبحانه وتعالى في الازدياد من الطاعة. بما يفيد استوفوا التقوى في كل شيء ﴿ **إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ** ﴾ فإن التزمتن التقوى، كما أمر الله تعالى ﴿ **فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ** ﴾ فلا ترققن القول والكلام عند مخاطبة الرجال، فعني بذلك عند مخاطبتهن للرجال، ولهذا قال سبحانه وتعالى عن علة وسبب ذلك النهي ﴿ **فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ** ﴾ أي: الذي في قلبه مرض الشهوات، لضعف إيمانه. فكنَّا عنه بالمرض، بما يجمع به جميع ما يمكن أن يكون في نفوس الرجال من الرغبة في النساء. مما يبين مخاطر الصوت إذا تم ترقيقه من النساء، حتى وإن كان الكلام طبيعي في معناه، إلا أنه مُرَقَّق، فإنه عامل يثير الفتنة عند الرجل المريض بالشهوات، الذي يمكن أن تفتنه الشهوات. مما يفيد أهمية درأ المفاسد، مهما كان الإنسان.

ومن دقائق البيان أن وصف القول المنهي عنه بالخضوع ﴿ **فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ** ﴾ لأن فيه ما يفيد خضوع المرأة بالقول للرجل. قال السعدي رحمه الله تعالى: المنهي عنه: القول اللين، الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يُطمع فيه[1] ففي اختيار اللفظة دون غيرها بلاغة في استيفاء

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٣٧/٤)

معانيها ودلالاتها. ليفيد الإعجاز البياني حتى في اختيار الألفاظ، وأسلوب السياق. فسبحان من جعل الأعجاز حتى في ألفاظ كلامه عَزَّ وجل.

ويبين هذا أن القلوب تنقسم إلى قسمين: قسم صحيح بقوة الإيمان، فلا تؤثر فيه ولا تستثيره الشهوات والشبهات، وقسم مريض، تؤثر فيه الشهوات، وبالتالي فإن الشهوات إذا مرت بهذا النوع من الناس أثَّرت عليه. كما جمعت صفة ودلالة المرض جميع أنواعه ودرجاته المتباينة بين الناس. مما يستوجب الحذر، وأن على المؤمن أن يعرف نفسه، ويتجنب مواطن إثارة الشهوات، وأن يتجنب إثارة شهوات غيره بأي نوع من أنواع المثيرات، سواء من نفسه، أو بواسطة أخرى من المثيرات. وبالتالي فإن كل وسيلة يكون حكمها بحكم ما يحصل بها. فالوسائل لها أحكام المقاصد، بما تؤدي وتفضي إليه. مما يدل على بلاغة الشريعة الإسلامية في تقنين التعامل بما يُفضي إليه من خير أو شر. وأن هذا الدين هو دين العفاف، وحفظ الإنسان من كل ما يجلبه إلى الشر، أو يجلب الشر إليه. وإذا كان هذا النهي في حق أمهات المؤمنين، فإنه يكون في حق غيرهن من النساء أوجب، وألزم، وأكثر قيداً. وإذا كان ذلك النهي مع جيل الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، فهو في حق غيرهم ألزم وأوجب.

ثم يوجههن سبحانه وتعالى إلى منهجية وأسلوب القول المضاد للمنهي عنه ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ أي: قُلْنَ القول المتعارف عليه، المتصف بالقول الطبيعي، الذي خلا من الليونة والخضوع والرقة، وخلا كذلك من الغلظة والشدة. قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً، معروفاً في الخير. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: ومعنى هذا: أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها[1] مما يبين أهمية التفريق في نبرة الصوت عند المخاطبة. وهو أدب كريم، يمنع الوسائل المؤدية إلى المقاصد الفاسدة. فالحمد لله تعالى على نعمة الإسلام.

ثم يتدرج التوجيه الكريم من رب العالمين إلى ما يتحقق به الستر والحفظ ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ والزمن يا نساء النبي بيوتكن، فلا تخرجن منها لغير حاجة، وورد التوجيه الكريم بفعل الأمر ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ مما يستوجب عليهن الالتزام بذلك وجوباً. وأضاف البيوت إليهن ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ تكريماً وبياناً أن البيوت ألصق بهن في المكوث ولزومها، وعدم مفارقتها إلا لحاجة. بما يفيد أن الأصل هو لزوم البيت.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٩١)

ثم يعطف سبحانه وتعالى النهي عن التبرج على النهي السابق ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ولا تُظهرن ما يجب ستره، كما يفعله أهل الجاهلية. والتبرج هو إظهار ما ينبغي ستره، وهو التكشف والبروز، من غير حائل وساتر يسترها، وهو تكلف إظهار الزينة، بمعنى التعمد في ذلك. فهو إظهار المرأة لشيء من محاسنها الخلقية، أو ما يُضاف من الزينة، كالملابس والحلي. قال قتادة رحمه الله تعالى: التبرج في هذا الموضع التبختر والتكسر. وقيل: إن التبرج هو إظهار الزينة، وإبراز المرأة محاسنها للرجال[١] مما يوجب على بقية نساء المؤمنين أن يقتدين بأمهات المؤمنين. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وفيه تعريض ينهى غيرهن من المسلمات عن التبرج[٢] اقتداء وتأسياً بأمهات المؤمنين، لأنهن قدوات للمؤمنات. وقال قتادة رحمه الله تعالى كما مر سابقاً: التبرج في هذا الموضع التبختر والتكسر. وقيل: إن التبرج هو إظهار الزينة، وإبراز المرأة محاسنها للرجال.

ونسب سبحانه وتعالى أصل التبرج للجاهلية ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ بما يفيد أن السائد في الجاهلية كان هو التبرج. قال قتادة رحمه الله تعالى كانت لهن مشية وتكسر، وتَغَنُّج، يعني بذلك الجاهلية الأولى، فنهاهن الله عن ذلك[٣] وعن المقصود بقوله سبحانه وتعالى ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أنه كل تبرج كان موجوداً في الأمم السابقة، فنهت عنه شريعة الله تعالى. فقد ذكر المفسرون أقوالاً متعددة، واختلافها واقع في الزمن الخاص بالمقصود بالجاهلية الأولى، وليس في نوع التبرج، فصورته تجمع جميع أنواعه وأشكاله. فقيل: أنها كانت في الزمن بين إدريس ونوح عليهما السلام. وقيل: أنها كانت على عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وقيل: أنها في الزمن الذي بين نوح وآدم عليهما السلام. وقيل ما بين محمد صلى الله عليه وسلم، وعيسى عليه السلام. وقال الزجاج رحمه الله تعالى: وإنما قيل ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ لأن كل متقدم أول. وكل متقدمة أولى. فتأويله: أنهم تقدموا أُمة محمد صلى الله عليه وسلم[٤] وقال ابن عطية رحمه الله تعالى: وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كان عليه، وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى. وقد أوقع اسم الجاهلية على تلك المدة التي قبل الإسلام، فقالوا: جاهلي في الشعراء. قال القرطبي رحمه الله تعالى بعد أن استعراض تعدد الأقوال واختلافها: وهذا قول حسن. ويعترض بأن العرب كانت أهل قَشَف وضَنْك في الغالب، وأن التنعم وإظهار الزينة إنما جرى في الأزمان السابقة، وهي المراد بالجاهلية الأولى. وأن المقصود من الآية: مخالفة من قبلهن من المِشية على تغنج، وتكسير، وإظهار المحاسن للرجال، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعاً. وذلك يشمل الأقوال كلها،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩٧/١٩)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١١/٩)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩٧/١٩)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٧/٦)

ويعمّها، فيلزمن البيوت[١] فإن كانت هناك حاجة للخروج فيكون على تستر واحتشام. فيكون المقصود بالجاهلية الأولى هو ما تقدم من جاهلية تلك الأزمان، وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كانوا عليه، وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى.

ثم يأمرهن تبارك وتعالى بلزوم أداء العبادات، ويبدأ الأمر بالصلاة ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وفي البدء بالصلاة دليل على أنها أعظم العبادات، وأن بقية العبادات تعتمد على أدائها. كما ورد الأمر بها بدلالة الإقامة ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والإقامة للصلاة تتجاوز معنى أداء هيئتها إلى استيفاء كمال إقامتها، فالقيام بالشيء هو استيفاء لكل مطالبه ومكوناته، فيستوفين شروطها وأركانها وسننها، وهذا من دقائق البيان، مما يدل على أهمية الاتصاف بهذه الصفة في أداء الصلاة.

ثم يأمرهن بأداء الزكاة ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وقُمْنَ بأداء الزكاة لأهلها المستحقون لها، فلا تتأخرن عن الأداء لها، ولا تمتنعن عن أدائها، بل استوفوا المفروض فيها. ثم يأتي التعميم الشامل لكل العبادات والتشريعات، بقوله عَزَّ وجل ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فأتمرن والتزمن طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في كل أمر ونهي، فالزموا ما أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم، والانتهاء عَمَّا نهى عنه الله تعالى ورسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن جليل الفوائد أن الله تعالى قرن طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بطاعته، ولم يفصلها عن طاعته، ليتبين أنه لا فصل بين ما جاء في كتابه سبحانه وتعالى القرآن الكريم، وما بين ما جاء في سنته صلى الله عليه وسلم، فكلاهما أصل في الدين وعماده ومنهجه. فمن فرق بينهما فقد حاد عن الطريق المستقيم، وحاد عن طاعة الله تعالى. كما أن في ذلك بيان لمنزلته ومكانته صلى الله عليه وسلم. وأن طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام هي جزء من طاعته سبحانه وتعالى.

ومن جميل البيان أن جمع الله تعالى جميع مفردات الطاعة في قوله عَزَّ وجل ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فبعد أن أفرد عبادتي الصلاة والزكاة بالذكر والتخصيص، للتنويه بعظيم شأنهما، وتمييزهما عن عموم غيرها من العبادات، ورد التعميم بالطاعة، وذلك لبيان ما للصلاة والزكاة من المنزلة والمكانة العظيمة في شريعة الله تعالى. فالصلاة عبادة بين العبد وربه عَزَّ وجل، والزكاة عبادة لله تعالى، ولكن نفعها عائد على العباد، وهي طاعة لأمره عَزَّ وجل. بما يبين عناية الله تعالى بأفراد الناس، وإعانتهم، وتحقيق الألفة بينهم.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٧/١٤)

ثم يخبرهن الله سبحانه وتعالى بفوائد وعوائد ما أمرهن به، وما نهاهن عنه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ فإن عوائد ذلك عائدة عليكن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، لِيُذْهِب عنكم الأذى والسوء والشر، ويطهر نفوسكم غاية التطهير. وورد البيان الكريم بصيغة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾ ليفيد أن الغاية من كل ذلك هو لتحقيق إبعاد الرجس عنكن، ويطهركن، وليس غير ذلك. فليس النهي عن خلل فيكن، بل لإبعادكن عن كل شر. ففي هذا عظيم التزكية لنساء النبي صلى الله عليه وسلم. وكذلك لنفي أن يفهم من النهي والأمر من أن هناك خلل فيهن رضي الله عنهن أجمعين، المتصفات بالطهر أهل البيت. كما شمل إذهاب الرجس ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ ليشمل كل ما ليس لله تعالى فيه رضا. فهو استيفاء عام، يتحقق به التخلية من كل سوء، والتحلية بجميع الفضائل. فإذا انتفى الرجس بقيت الفضائل قائمة على أصولها. ودلالة الرجس تشمل: الشرك، والإثم، والشيطان، والشك، كما ذكره ابن الجوزي عن أهل العلم[١] ففيه شمول لكل ما ليس لله تعالى في رضا.

وخصهم وعينهم سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ وهم زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، ويدخل فيه ذريته عليه الصلاة والسلام. قال ابن عباس وعكرمة وعطاء والكلبي ومقاتل وسعيد بن جبير: إن أهل البيت المذكورين هن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وقالت طائفة، أن أهل البيت هم فاطمة وعلي والحسن والحسين. وقال الشوكاني رحمه الله تعالى بعد أن ذكر ذلك: وقد توسطت طائفة ثالثة بين الطائفتين، فجعلت هذه الآية شاملة للزوجات ولعلي وفاطمة والحسن والحسين. وقال رحمه الله تعالى: فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين، فقد أعمل بعض ما يجب إعماله، وأهمل ما لا يجوز إهماله [٢] فباعتبار سياق الآية الكريمة، فإنها في شأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم. قال عكرمة رحمه الله تعالى: نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة[٣] وإلا فأهل بيته عليه الصلاة والسلام يدخل فيهم ذريته صلى الله عليه وسلم، والحسن والحسين، وعلي بن أبي طالب، كما وردت الأحاديث بذلك. فسبب الاختلاف هو من نظر للأحاديث الخاصة بفاطمة وعلي، والحسن والحسين، وهناك من عني بالنظر في سياق الآية فقط، وهناك من نظر للعموم وهو الأصوب. فالاختلاف هو اختلاف تخصيص، لا اختلاف عموم. ولكن باعتبار سياق الآية

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٨/٦)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٧٨/٤-٢٨١)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠٨/١٩)

فإن المقصود به هنا؛ هُنَّ نساء النبي صلى الله عليه وسلم. وقد أجاد الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في تحرير ذلك وبدأها بقوله: الأولى: قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ هذه الألفاظ تعطي أن أهل البيت نساؤه[١] فليتأملها من أراد الفائدة في تحرير ذلك.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى الغاية الأولى، وهي ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ عطف عليها الغاية الثانية: وهي تحصيل التطهير ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ فيطهركن من الأرجاس والأدران تطهيراً كاملاً. وقد ورد التطير بصيغة المبالغة، التي تفيد التأكيد في التطهير، إذ لم يقل سبحانه وتعالى ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ ﴾ فقط، بل أضاف إليها ﴿تَطْهِيرًا ﴾ لإفادة المبالغة التي هي: امتداد المعنى إلى أقصى غايته من التطهير والتزكية.

ثم يتدرج التوجيه الكريم إلى ما يجب عليهن من مهام يلزم أن يقمن بها. فبعد أن أمرهن بما يجب أن يتحلين به من العبادة، ومن الرقي الأخلاقي، والسَّمْة الحسن. يأمرهن بأن يذكرن ما يُتلى في بيوتهن ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ واذكرن ما يُقرأ في بيوتكن ﴿مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ من القرآن العظيم ﴿وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ أي: ما أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحكام الدين وشرعه الحكيم. ومن غزارة السياق الكريم أن دلالة قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْنَ ﴾ تحمل ثلاث دلالات لا تعارض بينها، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: اعملن بما ينزله الله على رسوله في بيوتكن من الكتاب، والسنة، قاله قتادة، وغير واحد. واذكرن هذه النعمة التي خُصصتن بها من بين الناس[٢] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: لفظ الذكر يحمل ثلاثة معان: أحدها: أي أذكرن موضع النعمة، إذ صيركن الله في بيوت تُتلى فيها آيات الله والحكمة. والثاني: اذكرن آيات الله واقدرن قدرها. وفكِّرن فيها، حتى تكون منكن على بال، لتتعظن بمواعظ الله تعالى. ومن كان هذا حاله ينبغي أن تحسن أفعاله. والثالث: وذلك هو الذي يُتلى في بيوتكن من آيات الله. فأمر الله سبحانه تعالى أن يُخبرن بما ينزل من القرآن في بيوتهن، وما يَرين من أفعال النبي صلى الله عليه وسلم، وما يسمعن من أقواله حتى يبلغن ذلك إلى الناس، فيعملوا ويقتدوا[٣]وفي هذا ما يبين قوة السياق الكريم الذي استوعب جميع تلك الدلالات

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٩/١٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٩٤/٣)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٠/١٤)

المتظافرة، وغير المتعارضة. كما يبين ذلك عظيم التكاليف التي كُلِّفنَ بها أمهات المؤمنين، ولكنه بما يتوافق مع القدر والمقدار العظيم من التشريف الذي نالهن، كما فيه أهمية تعليم ونشر علم الكتاب والسنة، وبثه بين الناس.

ثم علل سبحانه وتعالى هذا الأمر بإظهار حفاوته عَزَّ وجل بنساء النبي صلى الله عليه وسلم، فبعد الأمر بما يجب عليهن قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ فإن ربكم ذا لطف بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تُتلى فيها آياته ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن العظيم، وكذلك ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة النبوية المطهرة، وكما كان ربكن بكن لطيفاً، فكذلك كان بكن ﴿خَبِيرًا﴾ إذ اختاركن لرسوله أزواجاً صلى الله عليه وسلم. فهو امتنان عظيم، ومنزلة كريمة، تستوجب الشكر والطاعة، والامتثال بما أمركم الله تعالى به، ونهاكم عنه. فأصبحتن بهذه الخصائص لستن كأحد من النساء. بما يفيد العناية الخاصة بأن أظهر وبين سبحانه وتعالى لهن إنعامه وتفضله عليهن، بما يستوجب شكر النعمة قولاً واعتقاداً وعملاً. قال السعدي رحمه الله تعالى في معناها: أي: يدرك أسرار الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التي تبين وتسر. فلطفه وخبرته يقتضي حثهن على الإخلاص، وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال. ومن معاني اللطف التي يسوق عبده إلى الخير ويعصمه من الشر بطرق خفية لا يشعر بها. ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه[١] مما يبين أن لطف الله تعالى إذا أحاط بالعبد دفع عنه الشر من غير أن يتكدر العبد، ويسوق له أسباب الخير من حيث لا يحتسب. مما يعزز عند المؤمن الاجتهاد في طاعة الله تعالى، فليس هناك ألطف من الله سبحانه وتعالى.

ومن مزيد الفوائد ما ذكره ابن كثير رحمه الله تعالى، إذ قال: وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما أُولاهُن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، واخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه. قال بعض العلماء رحمهم الله تعالى: لأنه لم يتزوج بكراً سواها، فناسب أن تُخصص بهذه المزية[٢] وهذه من الخصائص الكثيرة لأم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٥٢/٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٩٤/٣)

وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾ ﴾

بعد أن ذكر تبارك وتعالى جزاء وثواب زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وأنهن لسن كبقية النساء انتقل البيان بعد ذلك إلى عموم المسلمين والمسلمات ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴾

فبدأ البيان الكريم بعموم المسلمين ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ ﴾ المنقادين والمنقادات لله تعالى، باستسلامهم لما جاءهم عن الله تعالى. ثم خص الإيمان ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ أي: المصدقين والمصدقات قلباً واعتقاداً، وعملاً بالتنزيل. وفي تخصيص الإيمان بعد الإسلام ما يدل على أن الإسلام أعم، والإيمان أخص. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه، لقوله تعالى في سورة الحجرات ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ وفي الصحيحين: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)[١] فيسلبه الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه[٢] وفي ذكر ذلك دليل على عموم الإسلام، وخصوص الإيمان. فالذي يظهر للناس الأعمال الظاهرة التي تمثل الإسلام، وتبقى حقائق الإيمان متعلقة بالقلب، وتصديقها بالأعمال التي تمثل ظاهر الإسلام.

ثم ذكر تبارك وتعالى ما يتعلق بالمواظبة على الطاعات ﴿ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ ﴾ والقانت هو العابد المواظب على الطاعات، وكذلك القانتة: العابدة المطيعة لربها عَزَّ وجل ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ المتصف بالصدق، وتحريه، والبعد عن الكذب، بما يعني مطابقة الوصف والنطق للواقع ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢٤٧/٤) برقم (٦٧٨٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٩٦/٣)

﴿وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ والصبر هو توطين النفس وإلزامها على فعل الواجبات، وترك المحرمات، فهو تحميل النفس مشاق التكليف، بالعمل بالمطلوب، والبعد عن الممنوع. ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ وهو انقياد القلب لله تعالى، واستشعار جلال الله تعالى وهيبته. وهما المتواضعان لله عَزَّ وجل، خوفاً وطمعاً ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ هو بذل الخير للغير، فيشمل صدقة الفرائض من الزكاة، والنفقة، وإعانة المحتاج، فهو أعم من صدقة الفرض والنفل ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ وهو صوم الفرائض، ويدخل فيه عموم التطوع.

ثم ذكر تبارك وتعالى ما يخص حفظ الفروج من الرجل والمرأة ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أي: لزوم التعفف والتصون والتطهر عن الحرام، والاقتصار على الحلال ، والتكفف والتعفف به، ثم ذكر سبحانه وتعالى ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ وهو عموم ذكر الله تعالى، في جميع الأوقات، ومنه المخصوص من الأذكار في بعض الأوقات، قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن آناء الليل، وأدبار الصلوات. وخص الله تعالى ذكره بأن يكون ﴿كَثِيرًا﴾ مما يحث المسلم على أن يكون كثير الذكر لربه جَلَّ جلاله بالتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد له عَزَّ وجل.

فهؤلاء المتصفين بتلك الصفات ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فقد هيأ الله تعالى لهم مغفرة الذنوب وسترها، وثواباً متصف بالعظمة التي لا يتصورها الإنسان، فلا يستطيع تقدير حجم ذلك الأجر من عظمته أحد. فنسأل الله تعالى أن نكون منهم. وفي هذا حث للمسلمين أن يجتهدوا في طاعة ربهم، ويسارعوا إليها، فالوقت محدود بالعمر، والثواب غير محدود بزمن، ولا بصورة محددة، ولا بحجم معين. فجنات الله تعالى لا تنقطع، ولا تنتهي، ونعيمها دائم لا يتوقف. فنسأل الله تعالى من فضله العظيم، بأن يوفقنا ويعيننا على طاعته وحُسن عبادته.

والمتأمل في تلك التوجيهات الربانية يجد شموليتها للعبد مع ربه تبارك وتعالى، ومع خلقه، ومع نفسه. ثم تلى ذلك التحفيز بالمثوبة والأجر العظيم من رب العالمين. كما شمل البيان في تلك التكاليف والأوصاف الرجال والنساء على حد سواء، لأنها من مقدور الجميع.

ثم بعد أن بين عَزَّ وجل المطلوب من عباده، يوجه تبارك وتعالى المؤمنين إلى ما يجب الالتزام به من الحقوق التي عليهم لربهم سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ لا يصح

ولا يحل ولا ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة ﴿ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا ﴾ إذا حكم الله سبحانه وتعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم حكماً فليس لهم الخيرة في ذلك، ما لم يجعل للمؤمنين خياراً في فعله أو عدم فعله، فيجب عليهم إنفاذه كما قضى، فليس لهم الاختيار وهي ﴿ ٱلۡخِيَرَةُ ﴾ فيختاروا من قضاء الله تعالى ما يحبون، ويتركون ما يشاؤون، بل يجب الالتزام بجميع ما قضى به عَزَّ وجل أمراً ونهياً ﴿ أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ ﴾ فليس لهم حق الاختيار من عدمه، أو تبديله وتغييره. ثم عمم تبارك وتعالى سوء العاقبة على من عصى ما قضى الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾ فإن مَن عصى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾ فقد بَعُد عن الصواب المحقق للهدى بُعْداً متناهياً ظاهراً واضحاً، وسلك غير طريق الحق والرشاد، مما يفيد أنه قد أهلك نفسه، وحقق لها خسران الدنيا والآخرة، وفوَّت عليها سعادة الدنيا والآخرة.

وفي دلالة معنى ﴿ مُّبِينٗا ﴾ ما يدل على المبالغة المتناهية في النأي الظاهر الواضح عن الحق، فإنه قد وقع بهذا في الضلال الواضح الذي لا لبس فيه، حتى أصبح في بُعد متناهٍ عن الحق والهدى، فقد وقع في ضلال ليس هيناً، وفي هذا تعظيم معصية ما يأمر ويقضي الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم، بل أُكِّدَ هذا الضلال بصيغة المفعول المطلق ﴿ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾ حيث أن لفظة ﴿ ضَلَٰلٗا ﴾ تفيد التأكيد، فتبين أنه ليس هيناً. كما سبقها حرف التحقق والتأكيد ﴿ فَقَدۡ ﴾ بأنه قد تأكد وتحقق بمعصيته أنه وقع في الضلال المتصف أنه ﴿ مُّبِينٗا ﴾ أي: لا ريب ولا شك فيه. مما يبين التحذير من مخالفة أمر الله تعالى، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم. كما قرن سبحانه وتعالى بين قضائه عَزَّ وجل وبين قضاء رسوله صلى الله عليه وسلم، بما يفيد أن المعصية في ذلك حكمها سواء، بالوقوع في الضلال المبين. لأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، بل هو وحي يُوحَى إليه به من ربه عَزَّ وجل فيما يأمر وينهى عليه الصلاة والسلام.

﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ

ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾

ينتقل البيان الكريم إلى قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش رضي الله عنها، وما تعلق وترتب على هذا الزواج من إبطال عادة الأدعياء، المتأصلة في الجاهلية، وأراد الله عَزَّ وجل زوالها بإيقاعها بحدث يستأصلها، ويهدمها من العقول والقلوب. لإثبات أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء من جميع النواحي، وبالتالي فإن زوجة الادعياء إذا طلقها زوجها فإنها لا تحرم على من تبناه بالتربية والنفقة. لأنه ليس ابناً له. فقال تعالى ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴾ واذكر أيها النبي حين تقول ﴿لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ﴾ للذي هداه ربه لنعمة الإسلام ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ ﴾ وأنعمت أنت عليه أيها النبي بأن أعتقته من الرق، ثم توليته بالرعاية والتربية والنفقة، وكان من سبي الجاهلية، واشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية، وأعتقه وتبناه.

وهو زيد بن حارثه. وكانت تحته زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأمها أميمة بنت عبد المطلب. فحصل بين زينب وبين زيد ما اقتضى وتَطَلَّب الأمر أن يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في شأن رغبته في طلاقها. ولو طلقها فإن النبي يريد أن يتزوجها باعتبار أنها ابنة عمته. وقد أعلم الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن زينب ستكون من أزواجه، ومع ذلك كان يقول صلى الله عليه وسلم لزيد ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ ﴾ يحثه على أن لا يطلقها، ويشجعه على أن يمسك زوجته فيقول له عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ فيقول الله تعالى له صلى الله عليه وسلم: وتأمره بأن يصبر على ما كان منها في حقه، وأن يتقي الله عَزَّ وجل. وهو يعلم عليه الصلاة والسلام بما أخبره الله تعالى به، من أن زيد سيفارقها، ويتزوجها عليه الصلاة والسلام.

وذكر القرطبي رحمه الله تعالى إن زيداً لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غِلظة قول، وعصيان أمر، وأذى باللسان، وتعَظُّماَ بالشرف، قال له صلى الله عليه وسلم: اتق الله. أي: اتق الله فيما تقول عنها. وأمسك عليك زوجك. وهو يخفي ما يعلمه من أن زيد سيفارقها، ويتزوجها عليه الصلاة والسلام. وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف. وذكر القرطبي كذلك أنه:

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على جهة الأدب والوصية: اتق الله في قولك. وأمسك عليك زوجك. وهو يعلم أنه سيفارقها، ويتزوجها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه، ولم يُرِد أن يأمره بالطلاق لَمَّا علم أنه سيتزوجها؛ وخشي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها. فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشي الناس في شيء قد أباحه الله تعالى له، بأن قال ﴿أَمۡسِكۡ﴾ مع علمه بأنه يطلقها. وأعلمه بأن الله أحق بالخشية، أي في كل حال. وقال علماؤنا رحمة الله عليهم: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين، كالزهري[١] ومن جميل التفسير ما ذكره ابن عاشور رحمه الله تعالى، عن قوله عَزَّ وجل: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ ليس بلوم، وأن قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ ليس فيه لوم، ولا توبيخ على عدم خشية الله، ولكنه تأكيد لعدم الاكتراث بخشية الناس[٢] أي: لا تكترث بكلام الناس، واجعل خشيتك لربك سبحانه وتعالى.

ثم يُعْلِمُ الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه مُظهِر لما في نفسه صلى الله عليه وسلم، مِن علمه بأن الطلاق كائن من زيد لزينب رضي الله عنها، وأنه متزوجها عليه الصلاة والسلام بحكم الله تعالى وقضائه، فقال عَزَّ وجل ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ وتسر في نفسك ما سيظهره الله عَزَّ وجل. وهو أن الله تبارك وتعالى أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم أن زينباً ستكون من أزواجه، كما قال به علي بن الحسين رضي الله عنه على ما سيأتي بيانه. وبالتالي فإن إشارة النبي صلى الله عليه وسلم بأن يمسك عليه زوجه، فإنه من باب أداء مسؤولية الاستشارة والنصح. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وأما إشارة النبي عليه الصلاة والسلام على زيد بإمساك زوجه، مع علمه بأنها ستصير زوجة له، فهو أداء لواجب أمانة الاستنصاح والاستشارة، وقد يشير المرء بالشيء يعلمه مصلحة، وهو يوقن أن إشارته لا تُمتَثَل[٣] فهو من باب الإشارة بالظاهر، وما قدره الله تعالى هو الكائن. وهذا من كريم أخلاقه صلى الله عليه وسلم.

فيكون قد عَلِم صلى الله عليه وسلم بأنه إذا طلق زيد زوجته زينب، يتزوجها عليه الصلاة والسلام، وهو الأمر الذي لم يُظهره صلى الله عليه وسلم لغيره من الناس ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ وهو الأمر الذي سيظهره الله تعالى للناس بالتشريع والفعل والتطبيق، بحصول الطلاق من زيد لزينب، وزواج النبي بها صلى الله عليه وسلم منها. ومع هذا يحثه صلى الله عليه وسلم على أن يبقيها. والله تعالى يريد أن

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٣/١٤)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٠/٩)

(٣) المرجع السابق (٣١/٩)

يُبطل أحكام الجاهلية بهذا الحدث المؤثر في قوته، فينتزع به ما في القلوب، ويُبطل به أعراف الجاهلية الباطلة في هذا الشأن ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ فتستحي من الناس، وما سيقولون به عنك ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ وربك أحق بالخشية. فعن علي بن حسين رضي الله عنهم، قال: كان الله تبارك وتعالى أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم أن زينب ستكون من أزواجه، فلما أتاه زيد يشكوها قال: اتق الله وأمسك عليك زوجك. قال الله تعالى ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾[١] فالعتاب من الله تعالى لرسوله لوجود الإعلام المسبق بما سيكون. مما يفيد أن علم الله عَزَّ وجل سابق لما سيكون قبل أن يكون. وأن الله تعالى إذا أراد شيئاً، هيأ ودبر له الأسباب التي تُفضي إلى تحقيقه. فله الملك سبحانه وتعالى، وله السلطان والشأن كله عَزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى عن شأن زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنهما ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ فلما قضى زيد منها ﴿وَطَرًا﴾ أي: حاجته ورغبته، وقضاء الوطر في اللغة: بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء، ثم صار عبارة عن الطلاق[٢] فلم تعد لزيد رغبة فيها فطلقها، وانقضت عدتها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ زوجك الله تعالى زينب. فالذي تولى تزويجها للنبي صلى الله عليه وسلم هو الله سبحانه وتعالى، بما قضاه. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وكان الذي ولي تزويجها هو الله عَزَّ وجل، بمعنى: أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي، ولا مهر، ولا عقد، ولا شهود من البشر[٣] ثم بين تبارك وتعالى السبب والعلة من هذا الحدث ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ حتى نمنع ونزيل الحرج عن المؤمنين في أزواج أدعيائهم بهذا القضاء ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ في زواج من تبنوهم بالمؤنة والتربية والتنشئة والحماية ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ إذا طلقوهم، فلم تعد لهم حاجة في زوجاتهم. فللمتبني أن يتزوج زوجة من تبناه إذا طلقها، لكيلا يعتقد ويظن أن امرأة المتبنَّي تحرم على المتبنِّي، فلا يحل نكاحها، لأنه ليس ولده من صلبه.

وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى وغيره أنه: لَمَّا انقضت عدة زينب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد: اذهب فاذكرها عليَّ. قال زيد: فانطلقت، فلما رأيتها عَظُمَت في صدري، حتى ما أستطيع أنظر إليها،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١٧/١٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠٢/٦)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٩٩/٣)

لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها، فوليتها ظهري، ونكصت على عقبي. وقلت يا زينب، أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أُؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها. ونزل القرآن، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن[١] فما أعظم تدبير وقضاء الله عَزَّ وجل. فإن في إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم زيداً لها ما يفيد أنه عَلِمَ تمام العلم بقناعة زيد الجازمة من زينب. كما أن في فعل زيد، وتعظيم شأن زينب في قلبه، ما يدل على أن الله تعالى أوقع في قلبه هيبة لها، وأنه قد زال من قلبه أنها كانت زوجة له، إذ يقول: حتى ما أستطيع أنظر إليها، فوليتها ظهري. فتأمل قضاء الله تعالى، وكمال قدرته على التدبير العظيم، حتى لِمَا هو كائن في النفوس. وما أجمل ترابط ذلك مع قوله عَزَّ وجل في ختام الآية الكريمة ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ فإن قضاء الله تعالى وحكمه إذا قضى وحكم بشيء فإنه كائن كما قضاه، ووفقاً لما حكم، فلا يرده شيء أبداً. بل ومن لطف قضائه عَزّ وجل إعادة تحرير ما في النفوس، وتوليد القناعات فيها تركاً من زيد رضي الله عنه، وإقبالاً من الرسول صلى الله عليه وسلم لزينب وقبولاً منها رضي الله عنها. فسبحان الله العظيم، وما أعظم تدبيره، الذي يُرَغِّب المؤمن ويحثه على أن يلجأ لربه في كل شأن، فهو الذي إذا تولى أمراً دَبَّره أحسن وألطف تدبير، سبحانه وتعالى. فإن فقرنا ثابت لربنا عَزَّ وجل في كل أمر وشأن.

وبعد أن أوضح تبارك وتعالى الحكمة من زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش رضي الله عنها، وما قرره سبحانه وتعالى من إبطال التبني، وما فرض الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم مما خصه به دون غيره، كدخوله بها دون ولي ولا مهر، وما خصه من تعدد الزوجات بأكثر مما فرض لغيره من العباد، حيث قصرهم على أربع زوجات في وقت وزمن واحد، فيقول عَزَّ وجل ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ لم يكن على النبي صلى الله عليه وسلم من لوم ولا عتاب ولا حرج في فعل ما أحله الله تعالى وقضى به له عليه الصلاة والسلام ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ ﴾ والحرج: ما يترتب عليه من الضيق والتضييق، والإثم والذنب، ففي نفي الحرج ما يستوفي به نفي جميع أنواع ودرجات اللوم والعتاب والإثم، وكل ما يدور في أذهان المبغضين، فيستوفي نفي الحرج عن كل ما فرض الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ فلا حرج في كل ما قدره وقضاه سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم. سواء من زواجه بزينب بنت جحش التي طلقها زيد بن حارثه رضي الله عنهما، أو زواجه لأكثر من أربع عليه الصلاة والسلام، وغير ذلك مما خصه الله تعالى به. وفي

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٠٣)

هذا إعلام للناس أجمعين بأن للنبي صلى الله عليه وسلم ما خَصَّهُ اللهُ تعالى به، وفَرَضَه له، بقسمته وتقديره له سبحانه وتعالى.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى ذلك بأمرين: الأول: أن ذلك هو ما كان من الله تعالى مع من سبقه من الأنبياء، فلم يؤثمهم بما أحله لهم ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ ﴾ فقضاؤنا بذلك هو سنة مِنَّا حتى فيمن كان قبله من المرسلين الذين مضوا وخَلوا من قبله عليهم الصلاة والسلام جميعاً. فكما فرضنا لهم فرضنا له صلى الله عليه وسلم. وكما أباح لهم أباح له عليه الصلاة والسلام. والأمر الثاني: أن الله تعالى إذا قضى بأمر فإنه مقضي، ومجزوم بتحققه ﴿ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴾ فأمر الله تعالى وحكمه ثابت، وقضاؤه كائنٌ لا محالة، وواقع لا محيد ولا معدل عنه. ومن دقائق البيان دخول ﴿ وَكَانَ ﴾ التي أفادت منذ قضاه وقدَّرَه إلى تحققه كما حكم به. كما أكد وقوع أمره سبحانه وتعالى بأسلوب التأكيد، فقال عَزَّ وجل ﴿ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴾ لإفادة التأكيد بأنه كائن ﴿ مَّقۡدُورًا ﴾ كما قدره، وأمر وحكم به ﴿ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴾ ليفيد أنه لا راد لحكمه وقضائه أبداً عَزَّ في علاه.

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ
مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ
وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ
يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾ ﴾

يذكر الله تعالى بالمدح والتمجيد جميع المرسلين الذين يبلغون رسالات ربهم للناس، ويخافون الله وحده ولا أحد سواه. فقال عَزَّ وجل ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾ الذين يبلغون رسالات ربهم للناس عبر القرون المتتالية، ويحصرون خشيتهم في الله تعالى، ولا يكترثون بغيره، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى. فإنهم محل الثناء. وبدأ البيان الكريم بالاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ لإفادة التعيين بالمدح والثناء للمرسلين بما أرسلهم ربهم به من شريعته ودينه القويم. فقد مدحهم الله سبحانه وتعالى بتبليغ ما أرسلهم به إلى عباده ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ

﴿ ٱللَّهِ ﴾ بإعلام رسالات ربهم وإبلاغها للناس، وتعليمهم بها، ونشرها بينهم، ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ويحصرون خشيتهم في الله تعالى، وينفون خشيتهم من كل أحد غير الله جَلَّ ثناؤه، فخشيتهم كائنة له عَزَّ وجل في كل شأن، بل إنها مقصورة على الله سبحانه وتعالى، إذ شهد لهم بذلك ربهم تبارك وتعالى في صورتين: الأولى: قوله عَزَّ وجل ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ ﴾ وهو تقرير الخشية له سبحانه وتعالى. والثاني: الحصر بلا النافية ﴿وَلَا ﴾ لنفي خشيتهم لغيره عَزَّ وجل ﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا ﴾ ثم أتبعها بلام الاستثناء ﴿إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ فنفى كل خشية، ليقصرها عليه سبحانه وتعالى ﴿إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ بما يفيد أنهم لم يتوانوا في ذلك، ولم يخشوا من أحد أبداً، مهما كانت سطوته إلا الله عَزَّ وجل، وبما يعني: أنهم لم يجعلوا لِطُعُون وكلام غيرهم أي أثر في إحجامهم ولو بالقليل، ولم يجاملوا أو يخافوا من أهل السلطة والقوة والجبروت، إذ لا يخشون سواه عَزَّ وجل، ولا يُبَالُون بتهديد أي كائن من الناس. فكانوا لا يأبهون بأحد ولا يصدهم عن ابلاغ رسالات الله تعالى أحد، بل كانوا يواجهون الباطل بالحق. مما يعطي دروساً وقدوة لأهل العلم الذين هم ورثة الأنبياء، بأن يكونوا كذلك في قول الحق، وتبليغ رسالة الله تعالى، ولا يخشون أحداً غيره جَلَّ جلاله.

ثم يقول تبارك وتعالى مدحاً وبياناً لعزته وقدرته وكفايته لمن لا يخشى أحداً إلا هو العزيز الحكيم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ فإنه سبحانه وتعالى يكفي عباده كل ما يخافونه، وهو المحاسب والمجازي لهم، فيكفيهم ربهم أنه هو الذي يعصمهم، ويحاسب كلاً بعمله. وفي هذا تعزيز للقوة الإيمانية في التوكل على الله سبحانه وتعالى، وكمال الإدراك بأنه عَزَّ وجل سيحاسب المسيء بما عمل، ويثيب ويجازي المحسن بما أحسن، فلن يفوت شيء على أحد من خير أو سوء، وسيقضي عَزَّ وجل بين العباد بحكمه العدل، سبحانه وتعالى.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى تصحيح الفكر والاعتقاد، وبيان الجادة المستقيمة في التبني، وفي العلاقات، من خلال شأن رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم. فيقول عَزَّ وجل ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾ لم يكن محمداً أباً لأحد من رجالكم ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ ﴾ وبالتالي لم يكن عليه الصلاة والسلام أباً لزيد بن حارثه، إذ لم يكن من صلبه حتى تحرم عليه زوجته زينب رضي الله عنها. فليس هو أب لأحد لم يكن من صلبه، وبالتالي لم يكن أباً لأحد لم يلده. بما يتقرر به أن حكم الجاهلية في التبني هو حكم كاذب باطل، لا يمثل الحقيقة، مما يدل على جهل من نسب أحداً إلى غير أبيه، أو حكم له، وأنشأ حكماً من غير حقيقة ولا دليل. ومن دقائق البيان أن الله تعالى ذكر رسوله باسمه صلى الله عليه وسلم ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ ﴾

لبيان التأكيد بالتعيين، الذي يتأكد بالاسم المحدد الذي تعرفونه، وسواء من آمن به، أو لم يؤمن به عليه الصلاة والسلام. ثم ذكره بعد ذلك بالرسالة وبالنبوة عليه الصلاة والسلام.

فبعد أن نفى عَزَّ وجل أن يكون محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أباً لأحدا من رجالكم، يقرر سبحانه وتعالى لعباده بأنه صلى الله عليه وسلم هو رسول الله ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ فإنه رسول لكم من ربكم تبارك وتعالى. ثم يقرر بأنه خاتم النبيين، صلى الله عليه وسلم، فلا نبي بعده أبداً ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فشمل البيان التعيين بالاسم، ثم الوصف له بالرسالة صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ وذلك تأكيداً بأن محمداً الذي تعرفونه هو رسول من الله تعالى. ثم ذكر عَزَّ وجل بأنه خاتم النبيين ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: أنه لا نبي بعده عليه الصلاة والسلام. ولم يقل سبحانه وتعالى: وخاتم المرسلين، لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسول. فنفى الأصل الذي هو النبوة، بأنه لا نبي بعده، ليؤكد بذلك أنه لا رسول بعده قطعاً. وهذا من دقة البيان وإعجازه في اختيار ألفاظه. والذي يؤكد أنه كلام الله تعالى المعجز في كل وجه، وكل شيء.

ثم يُظهر عَزَّ وجل سلطانه وكمال علمه فيما يصطفي ويختار، وفيما يأمر بهي، وينهى عنه، فيقول جَلَّ جلاله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ إن الله قد أحاط علمه بكل شيء، ومن ذلك ما بينه لكم، وكذلك اختياره واصطفاؤه لمحمد نبياً ورسولاً، وخاتماً للأنبياء. فهو الذي يعلم أين يجعل رسالته، ومن هو الذي يخصه بها دون غيره. ومن هو الذي يصلح لها من العباد. مما يفيد أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الأصلح والأجدر بها، فليس هناك أفضل منه، ولا أجدر منه بهذه المنزلة العظيمة. كما أن في كونه خاتم النبيين مدح وثناء ورفعة لمنزلته صلى الله عليه وسلم.

ثم يتوجه الخطاب إلى عباده المؤمنين بما يجب عليهم من ذكر ربهم سبحانه وتعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ يا من صدقتم بربكم، وبرسولكم، وبما جاءكم من عند الله تعالى، فأصبحتم مصدقين مؤمنين، فحزتم بذلك على رتبة الإيمان، فإن عليكم أن تذكروا الله ربكم سبحانه وتعالى ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ فاذكروه ذكراً كثيراً، ليفيد المبالغة في ذكره عَزَّ وجل، بحيث لا تنشغلوا عن ذكره، سواء ما كان بالأفعال، أو بالأقوال، أو بالقلوب. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: اذكروا الله بقلوبكم، وألسنتكم،

وجوارحكم ذكراً كثيراً، فلا تخلوا أبدانكم من ذكره في حال من أحوال طاقتكم[١] مما يبين أن عليكم مداومة ذكر الله تعالى أيها المؤمنون.

ثم يأمر اللهُ عباده المؤمنين بتنزيه ربهم عَزَّ وجل عما لا يليق به ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ فنزهوا ربكم عما لا يليق به خاصة ﴿بُكْرَةً ﴾ الذي هو أول النهار ﴿وَأَصِيلًا ﴾ الذي هو آخر النهار. أي: وقت الأصيل. وفي هذا التخصيص ما يفيد أهمية هذين الوقتين من بين جميع الأوقات، وأهمية التسبيح بالذكر، الذي هو من ضمن الأمر العام من قوله الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ وفي هذا بيان لشرف هذين الوقتين. وفي تخصيص هذين الوقتين ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ بالتسبيح لأنه لا يجوز التنفل بالصلاة بعد الفجر ولا بعد العصر، فيكون المقصود بالتسبيح هنا هو التنزيه بالذكر: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، وسبحان العظيم. ويدخل فيهما صلاة الفجر، وصلاة العصر، لما في الصلوات من التسبيح. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والمقصود من البكرة والأصل إعمار أجزاء النهار بالذكر، والتسبيح، بقدر الْمُكنة، لأن ذكر طرفي الشيء يكون كناية على استيعابه، ومنه قولهم المشرق والمغرب، كناية عن الأرض كلها، والرأس والعقب، كناية عن الجسد كله، والظهر والبطن كذلك. وقدم البكرة على الأصيل لأن البكرة أسبق من الأصيل[٢] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: اشغلوا ألسنتكم في معظم أحوالكم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير، وخص الفجر والمغرب والعشاء بالذكر لأنها أحق بالتحريض عليها، لاتصالها بأطراف الليل، وقال قتادة والطبري: الإشارة إلى صلاة الغداة، وصلاة العصر، والأصيل: العشي، وجمعه أصائل[٣] وقال ابن جرير رحمه الله تعالى: صلوا له غُدْوةً صلاة الصبح، وعشياً صلاة العصر[٤] وهذا يؤكد ويبين عظيم ثواب ذكر الله تعالى بالتسبيح في كل وقت، وخاصة في هذين الوقتين.

ثم ينتقل البيان إلى ذكر امتنانه سبحانه وتعالى على المؤمنين، برحمته لهم، وإرادته أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، فقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴾ فإن ربكم عَزَّ وجل ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ ﴾ وصلاة الله تعالى على عباده هي: رحمته، ومغفرته، وثناؤه، وكرامته، وبركاته عليهم. وتسخيره الملائكة بأن تصلي على المؤمنين

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢٣/١٩)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٠/٩)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٨/١٤)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢٣/١٩)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ وصلاة الملائكة هي: دعاؤهم واستغفارهم للذين آمنوا. من أجل ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ليخرجكم من ضلال الذنوب والجهل إلى نور الإيمان والهدى والعلم، فيرتقون في نور الإيمان والعلم والطاعة. بما يفيد العناية بأموركم وشؤونكم. ويظهر بذلك العلاقة بين كثرة الذكر وبين تحصيل نور الطاعة، فكلما كثر الذكر ازداد نور العلم والطاعة. فكانت هذه العناية الربانية للمؤمنين باعتبار أن لهم منزلة كبيرة عند الله سبحانه وتعالى ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ فإن عناية الله تعالى بالمؤمنين كائنة لهم بالرحمة، فهو يتولاهم برحمته المشتملة على كمال العناية. وهذا البيان من الله تعالى يستلزم من المؤمن المبالغة في طاعة وشكر ربه سبحانه تعالى، إذ أولاهم بهذه العناية والحفاوة العظيمة الكريمة، ومنها رحمته بهم، وتسخير الملائكة بالدعاء والاستغفار لهم. وإذا أدركها المؤمن وفهمها وعلمها فإنها تستوجب منه مجاهدة النفس في الامتثال والطاعة لله تعالى، كما تعزز لديه التفاؤل والأمل، والطمع في رحمة الله تعالى، وتُبعد عنه اليأس والقنوط، فيمتلئ قلبه سعادة وانقياداً وحباً لله تعالى.

ثم يخبر عَزَّ وجل عن تحيتهم التي يتداولونها عند لقائهم لربهم، وعند دخولهم الجنة ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ فتحية المؤمنين من الله تعالى يوم يلقونه: سلام. وتحيتهم من الملائكة يوم القيامة حين تبشرهم عند خروجهم من قبورهم، هي: سلام. وتحيتهم فيما بينهم يوم يلقون ربهم: سلام. فيحي بعضهم بعضا بالسلام. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فيه ثلاثة أقوال: أحدها: تحيتهم من الله تعالى يوم يلقونه سلام. والثاني: تحيتهم من الملائكة يوم يلقون الله تعالى: سلام. والثالث: تحيتهم بينهم يوم يلقون ربهم: سلام(١) والتي تعني الأمن والسلامة من كل شر، والطمأنينة والأنس. فلا إزعاج ولا كدر من أي نوع كان.

ثم يخبر تبارك وتعالى بما هيأه للمؤمنين من عظيم الثواب ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ فهيأ لهم ربهم في الجنة رزقاً حسناً، قد اتصف بالكريم الذي يدل على الكثرة والتنوع، إذ فيه مما تشتهيه أنفسهم، وتلذ به أعينهم. مما يستحثهم به على الإكثار من طاعته وكثرة ذكره سبحانه وتعالى، والمداومة على ذلك، وتسبيحه بكرة وأصيلا. فهو إرشاد وبيان للمؤمنين بالإكثار من الطاعة، وفيه ترغيب وتعليم لعموم العباد أن يلحقوا بالمؤمنين، ولا يُفَوتُوا فرصة الحياة الدنيا، قبل انقطاع العمل. وفيه بيان لحقيقة الآخرة ونعيمها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠٥/٦)

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

ثم يتجه الخطاب من الله تعالى إلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، بياناً وإيضاحاً لحدود مهامه ومسؤولياته، فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴾ فإن مهامك أيها النبي التي يلزم أن تقوم بها، أنك شاهد على أمتك بالبلاغ بما أرسلت به من دين ربك عَزَّ وجل. وأنك مبشر بالجنة لمن صدقك واتبعك، ومنذر بالنار وسوء العذاب لمن كذبك. وما عدا ذلك فلست مسؤولاً عنه، كالذين لم يستجيبوا لك.

فهناك خمس مهام: فالمهمة الأولى لك أيها الرسول ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا ﴾ أي: شاهداً على أمتك بالبلاغ بما أرسلت به، من دين الله تعالى. والمهمة الثانية: ﴿وَمُبَشِّرًا ﴾ أي: مبشراً بالجنة لمن صدقك واتبعك، بطاعة ربه عَزَّ وجل. والثالثة: ﴿وَنَـذِيرًا ﴾ أي: منذر بالنار وسوء العذاب لمن كذبك. وفي هذا البيان من الله تعالى ليعلم الناس بأن ليس على الرسول صلى الله عليه وسلم مسؤولية من امتنع عن الإسلام ولم يستجب، فكل إنسان يتحمل مسؤولية نفسه، ووزر ذنوبه وامتناعه.

والمهمة الرابعة: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي: تدعوا الناس إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، والتزام شريعته، وهذه الدعوة من الرسول صلى الله عليه وسلم، هي ﴿بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي: بأمره عَزَّ وجل، بما يفيد: أنه ليس من تلقاء نفسه، بل بتوجيه وأمر وبيان من الله سبحانه وتعالى. والمهمة الخامسة: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ أي: فإنك أيها النبي سراجاً للناس بما جئتهم به من دين الله تعالى، لتكشف لهم عما هم فيه من ظلمة الجهل والكفر والشرك، ومفاسد الأخلاق. ومن دقائق البيان أن وصفه الله تعالى بالسراج الذي هو الأقوى في شعاعه وضوئه، فإنك يا أيها النبي بمثابة السراج الذي ينير للناس الطريق، حتى يهتدوا، ويعرفوا كيف ومن أين يمرون ويمشون ويسيرون، حتى يكون سيرهم على هدى ونور من الله تعالى. مما يبين أن هذا الدين نور مبين، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم سراج في كل خير، وأن من أراد الخير فعليه بهديه وشرعه الذي جاء به من الله تعالى. كما يفيد هذا: أن من كان على غير هذا الهدي فإنه في ظلمة من الجهل، وظلمة في المسلك، وفي الطريق الذي سيؤدي به إلى ظلمة العمل وسواده الذي يهوي بصاحبه في نار جهنم وبئس المصير.

ثم يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يخبر المؤمنين ببشارة عظيمة، وهي ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ فبدأ البيان بالتبشير ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والبشرى من الله تعالى تعني العظيم من الأمر، وإذا كانت موجهة للمؤمنين، فإنها تعني عظيم الثواب. فتعني تبشير المؤمنين من ربهم تبارك وتعالى ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ والفضل هو: الثواب العظيم، وهو الزيادة في الثواب، والذي قد تعاظم، فهو فضل قد تعاظم بدخولهم الجنة، والمثوبة العظيمة من النعيم المقيم، والتوفيق والسداد. كما تشمل الدلالة ما يكون لهم في الدنيا من الفضل العظيم، من النصر والتمكين، والأرزاق، وطمأنينة النفس، وكشف الكربات، وغير ذلك من أفضال الله تعالى التي لا يحده ولا يعده أحد. وفي هذا ما يحفز المؤمنين على المزيد من الطاعة والاستقامة التي تحقق لهم ما يتطلعون إليه في الدنيا والآخرة.

ولما أن هناك فئة من الناس تُضاد وتعاكس الحق، حتى ولو كان الحق على يد الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي أرسله الله تعالى بالحق المبين، مع الآيات والبراهين والحجج إلا أنهم يشعرون بمرض الكبر والاستعلاء، والحسد، ومضادة الحق، فيضع سبحانه وتعالى العلاج لذلك، ويوجه إليه الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ ينهى الله تبارك وتعالى مطاوعة وموافقة الكافرين، والمنافقين ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ فلا تطع الكافرين الذين لم يُؤمِنُوا بك، ولا تطع المنافقين الذين يُظهِرُون الإسلام ويُبطِنُون الكفر. فكلاهما عدو لك وللإسلام. فلا تطعهما فيما يشيرون به إليك من المداهنة. وهنا لم يأمره سبحانه وتعالى بإيذائهم، بل أمره بتجنب موافقتهم، بما يفيد أنهم لا يطلبون شيئاً ولا يشيرون بشيء إلا وفيه شر للمسلمين، حتى وإن كان ظاهره حقاً وصواباً. وفي هذا تنبيه لأمته بأن لا يغترون بهم، لأنه عليه الصلاة والسلام معصوم بما يوحيه ويرشده الله تعالى إليه. ويستفاد من هذا تعظيم شأن النهي، فقد أوقعه ووجهه سبحانه وتعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، لتدرك الأمة خطر هؤلاء. كما يستفاد منه أن التوجيه العام قد يكون للقائد، ليشمل عموم المعنيين به. فالتوجيه للقائد هو توجيه لأتباعه، ومن هم تحت إمرته وقيادته.

ثم يبين سبحانه وتعالى أنه في حالة وقوع الأذى منهم، فإن منهج التعامل معهم هو ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ أي: لا تهتم وتكترث بما يصدر منهم، ولا تبالي به، ولا ترد عليه بمثله من باب الجزاء. ليفيد التَّحَمُّل لهم، لعلهم يرتدعون، ويتأثر بعضهم بمنهج الإسلام، فيدخلون في دين الله تعالى، نتيجة ما يراه من التعامل. وفي نفس الوقت لا توافقهم فيما يشيرون به إليك. خاصة وأن هذا في بداية الإسلام. حتى لا ينشغل بالنزاع الداخلي عن حاجة من هم خارج المدينة وما حولها للدعوة النبوية. حتى يكثر بهم سواد المسلمين، ويقل به سواد هؤلاء الكافرين والمنافقين في المدينة. مما يبين أهمية الحكمة، وأهمية ترتيب الأولويات. وأن هذا الدين هو دين الحكمة

والعلم، والتخطيط والتنظيم، وليس دين الفوضى. خاصة وأنه لما قوي الإسلام نسخ الله تعالى هذا بآية السيف. قال القرطبي والشوكاني وابن الجوزي رحمهم الله تعالى: وهذا منسوخ بآية السيف(١) التي هي قوله تعالى من سورة التوبة ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾ مما يدل على أهمية الحكمة في التعامل، وعدم المخاطرة والمجازفة، فإنها من الأعمال المضادة لمنهج الإسلام.

ثم يوجه سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبعاً له، يوجههم إلى التوكل عليه عَزَّ في علاه ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ واعتمد على ربك، وفوض أمرك إليه، فهو الذي يكفيك شأنهم وشرهم. والوكيل هو من تفوض إليه قضاء حاجتك. وبالتالي عليكم أيها المؤمنين التزام ما وجهناكم إليه، متوكلين ومعتمدين على ربكم سبحانه وتعالى ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي: فكفى بالله تعالى حافظاً وقائماً على أمرك وشأنك أيها الرسول ومن معك. فلا تحتاج إلى معين غيره، فيكفيك أن يكون ربك عَزَّ وجل هو وكيلك. فمن كان وكيله الله تعالى، فقد فاز فوزاً عظيماً، وانتصر على كل من يعاديه، أو يبطن له السوء. مما يدل ويفيد على البشارة بالنصر والتمكين.

ثم ينتقل البيان من الله تعالى إلى فقه النكاح، عن شأن قضية العدة للمرأة المطلقة من غير جماع لها من الزوج، فيقول عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ بدأ البيان عن أحكام المطلقة من غير جماع من زوجها لها بالنداء للمؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ وكذلك بتعيين المخاطبين، وهم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم، وعملوا بشرعه ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ إذا حصل أن تزوجتم مؤمنة من المؤمنات، فعقدتم عليهن عقداً ﴿ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ ثم حصل الطلاق من غير جماع لهن، وسواء كانت مدة الزواج قصيرة أو طويلة، فالعبرة بالجماع. حيث لم يحدد سبحانه وتعالى مدة ذلك. ومن فوائد البيان التكنية عن الجماع

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٠٦) والقرطبي (١٤/١٣٠-١٣١)

بالمس ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ إثارة للأدب، وتعليم للأمة بأدب الكلام، واختيار الألفاظ، وضبط التعبير، وتلافي العبارات والألفاظ التي يستحي منها القائل، والمقول له، والمقول فيهن. فإنه أدب رفيع عظيم. يُعلم به الله تعالى المؤمنين أدب اختيار الألفاظ.

ومن جليل الفوائد ما ذكره السعدي رحمه الله تعالى: فإنه يدل على جواز الطلاق، وأن الله تعالى أخبر به عن المؤمنين، على وجه لم يلمهم عليه، ولم يؤنبهم، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين. ومما ذكره السعدي من الناحية الفقهية: وعلى أن المرأة قبل الدخول لا عدة عليها، بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج، حيث لا مانع. وعلى أن عليها العدة بعد الدخول(١) مما يدل على جواز الطلاق قبل المساس، لأي سبب يطرأ على الزوجين.

وهنا ينتفي حقكم أيها الأزواج في إلزامها بعدة تعتدها ﴿فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا﴾ فليس لكم إلزامهن بعدة، وهي المدة الزمنية التي تكون بعد الطلاق إلى الزواج بغيره. وفي ذلك تحديد للحكم في العلاقة بين الزوجين، والحقوق التي لكل واحد منهما على الآخر. فهو الحكم الذي نفي وجوب المدة التي بانقضائها يحل لها أن تتزوج بزوج آخر. فليس هناك مدة زمنية واجبة عليها، وليس هناك مدة زمنية له عليها. لأن العدة هي من باب حفظ النسل، وإثبات الحمل. فلما أنه لم يقع جماع بين الزوجين فإنه بالتالي لم يحصل احتمال الحمل. فانتفى بذلك موجب العدة. وهذا من كمال هذا الدين، ومن كمال الفقه والتشريع. وحفظ الحقوق بالعدل، وحفظ الأنساب. وورد لفظ نفي العدة بأسلوب الافتعال، بأن تستوجبون عليهن عدة ﴿تَعۡتَدُّونَهَا﴾ تفرضونها من غير موجب لها. أي: تستوجبون مدة تفرضونها. وهناك مسائل وتفريعات فقهية تناولتها كتب الفقه، وبعض كتب التفسير.

ثم يأمر تبارك وتعالى بإكرام من يتم تطليقها بأحسن وأفضل إكرام ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ أي: اجبروا خواطرهن ببعض العطاء ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ وهو ما ينتفع ويتمتع به الإنسان من مال ونحوه ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أي: اتركوهن لأنفسهن، ثم بين تبارك وتعالى نوع هذا التسريح وكيفيته، فقال تعالى ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ وهو التسريح الذي خلا من الضرر، مع إضافة التجميل والحسن له، بالكلمة الطيبة، والعطاء الطيب. وذلك جبراً لخواطرهن، وعوضاً عما حصل لهن من الطلاق. مما يفيد عظمة منهج الإسلام، وربط العلاقات بين الناس عموماً، وبين الزوجين خصوصاً بأنبل وأحسن الأخلاق وأكملها، حتى حين الفراق الذي لا لقاء بعده. لأن الفعل من الإحسان هو لله تعالى، فلا ينتظر مردوداً له إلا من الله عَزَّ

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/١٦١)

وجل. مما يبين أنه كلما تعمق المؤمن في فقه الدين، وتعمق الإيمان في قلبه ازداد به أخلاقاً، فمن زاد في الخلق إخلاصاً لله تعالى دل على زيادة الإيمان والفضل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ
عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ
مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ
عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ
عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ
وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ
بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾ ﴾

يذكر الله تبارك وتعالى جانباً من مظاهر فضله، بما امتن به على رسوله صلى الله عليه وسلم فَخَصَّهُ من أمور النكاح بما لم يجعله لغيره من عباده، فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، بما تفضل به عليه مما خصه من أمور النكاح. فبدأ عَزَّ وجل خطابه بنعمة النبوة، وبياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ يا من خصك الله بالنبوة. ثم الإعلام بخصيصة الامتنان والفضل بأنواع النكاح التي أحلها سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم.

وبدأ البيان الكريم بأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتي أعطاهن مهورهن ﴿ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ إنا أبحنا لك أزواجك اللاتي أعطيتهن مهورهن. وقد ورد بيان تحليل النكاح

بضمير المتكلم ﴿ إِنَّآ ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى، فنسب تبارك وتعالى حكم التحليل له عَزَّ وجل ﴿ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا ﴾ فأظهر العناية الخاصة برسوله صلى الله عليه وسلم، بل أيضاً ورد بأسلوب التخصيص له ﴿ لَكَ ﴾ بأنك أنت المعني بهذا الحكم ﴿ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ ﴾ بما يفيد التأكيد الجازم. وبما يفيد أن الله تعالى قضى بهذا الأمر ﴿ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ ﴾ ففي ذلك غاية العناية الفائقة من الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم.

فربك هو الذي أحل لك جميع أزواجك اللاتي دفعت لهن مهورهن ﴿ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ وهن اللواتي تزوجهن بصداق، قال القرطبي رحمه الله تعالى: أحللنا لك أزواجك، أي: الكائنات عندك، لأنهن قد اخترنك على الدنيا وزينتها. قاله الجمهور من العلماء، وهو الظاهر(١) وأيضاً أحل ربك لك ﴿ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ ﴾ وهن الجواري، أي: قد أحل عَزَّ وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأمته الجواري، ولكنه هو المعني بذكر الأنواع هنا صلى الله عليه وسلم ﴿ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ﴾ أي: أعطاك إياه من الكفار، من الغنائم. وتُسمَّى الغنيمة كذلك فيئاً. كصفية، وجويرية، رضي الله عنهن، فإنه أعتقها وتزوجها صلى الله عليه وسلم ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ ﴾ وفي هذا تشريف لبنات عمه وعماته، وهن من قريش ﴿ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ﴾ نساء بني زُهرة، وهو تشريف لبنات خاله وخالاته بالتخصيص. كما أن في هذا التخصيص بالذكر ما يفيد أهمية العناية بصلة القرابة من خلال الزواج منهن. وبيان موقعهن من الصلة بالنبي عليه الصلاة والسلام، ورفع لشأنهن وشأن أهلهن من قرابة النبي عليه الصلاة والسلام. مما يدل على حفاوة الله تعالى برسوله عليه الصلاة والسلام، وبقرابته المؤمنين. مما يدل على أن الإسلام وهو دين الحفاوة، ودين التنظيم القائم على تحقيق أهداف التقارب، وتقوية اللحمة بين الأقارب.

ثم ذكر سبحانه وتعالى مدحاً وثناء لزوجاته اللاتي هاجرن معه ﴿ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ ﴾ أي: زوجاتك اللاتي هاجرن معك إلى المدينة ﴿ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ وأحللنا لك أيضاً: امرأة مؤمنة، إن وهبت نفسها لك أيها النبي، والهبة العطاء من غير عوض ﴿ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا ﴾ إن آثرت ورغبت أيها النبي في الزواج بها ﴿ خَالِصَةٗ لَّكَ ﴾ أي: خاصة لك ﴿ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٣/١٤)

حكم خاص بك من دون المؤمنين، فلا يشاركونك في الحكم. وقيل في معنى ذلك، كما أورده ابن الجوزي ثلاثة أقوال: أحدها: أن المرأة إذا وهبت له نفسها، لم يلزمه صداقها، دون غيره من المؤمنين. قاله: أنس بن مالك، وسعيد بن المسيب. والقول الثاني: أن له أن ينكحها بلا ولي ولا مهر، دون غيره. قاله قتادة. والقول الثالث: خالصة لك أن تملك عقد نكاحها، بلفظ الهبة دون المؤمنين. وهذا قول الشافعي(١) وجميع الأقوال في تظافرها تعطي دلالة الحكم والتشريع فيما يخص النبي صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أن الله تعالى هو المشرع، وأن له أن يُشَرِّعَ ما يشاء عَزَّ وجل، وفيه فضل النبي صلى الله عليه وسلم، وتخصيصه بما ليس لغيره. وهناك مسائل متعددة قد استوفتها بعض كتب التفسير، وبالأخص كتاب: الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي رحمه الله تعالى.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عما أوجبه على المؤمنين في الزواج والتعدد ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي: علمنا بما أوجبنا على المؤمنين، وهو: ألا يتزوجوا إلا أربع نسوة، بمهر وبينة وولي. قال معناه أُبي بن كعب، وقتادة وغيرهما(٢) فلا يكن في عصمة الرجل في وقت واحد إلا أربع حرائر، ويكون الزواج بولي وصداق وشاهدين ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: وما أبحنا لهم من مُلك اليمن، مع الأربع الحرائر، من غير عدد محصور من ملك اليمين. وفي ذكر أحكام نكاح المؤمنين هنا، لمنع الخلط بين ما خص الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم وغيره من المؤمنين.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بعلة وسبب بيان ذلك ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أحللنا ما ذكرناه حتى لا يكون عليك ضيق بما وسعنا عليك. وفي هذا دفع الضيق، ودفع ما يتحرج به صلى الله عليه وسلم، فإن الله تعالى قد شرع له ذلك دون غيره. وبهذا الإخبار بالحكم وإعلانه يرتفع الحرج من كل وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم. مما يبين لطف الله تعالى عموماً، وخاصة برسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يختم الله سبحانه وتعالى هذا الحكم بما تأنس به النفوس المؤمنة، من المغفرة والرحمة بهم من ربهم تبارك وتعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فإن ربكم متصف بمغفرة الذنوب وسترها، ومحوها، وأنه رحيم بعباده، إذ شرع لهم النكاح، ووضع له القواعد التي تحفظ الأنساب، والحقوق، وتمنع الحيف والظلم، والتقاطع. فأضفى عليه الأحكام النفيسة، وأحاط تشريعه برحمته التي رحمكم بها. فالحمد والشكر لله عَزَّ وجل.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠٨/٦)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٨/١٤)

ثم يذكر سبحانه وتعالى العلاقة الزوجية في البقاء والتأجيل، والتعجيل ﴿ تُرۡجِى مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِىٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ فيا أيها النبي ﴿ تُرۡجِى مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِىٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ ﴾ فلك أن تطلق من تشاء من نسائك، وتمسك من تشاء من نسائك، قاله ابن عباس. وتترك نكاح من تشاء، وتنكح من نساء أمتك من تشاء، قاله الحسن. وتعزل من تشاء من أزواجك، فلا تأتيها بغير طلاق، وتأتي من تشاء فلا تعزلها، قاله مجاهد[١] ومن دقائق البيان: أن الله سبحانه وتعالى جعل حرية المشيئة للرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك ﴿ تُرۡجِى مَن تَشَآءُ ﴾ فتؤخر من تشاء، فلا تقسم لها، وتعزل من تشاء فلا تأتيها، وكذلك الإيواء، وهو الإبقاء ﴿ وَتُـٔۡوِىٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ ﴾ وفي هذا رفع الحرج عن النبي صلى الله عليه وسلم عند تصرفه مع زوجاته فيما يخص البقاء أو الطلاق.

وقد جمع قوله تعالى ﴿ تُرۡجِى مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِىٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ ﴾ نكاح من يريد نكاحها، وترك من لا يريدها. وتؤخر من تشاء فلا تقسم لها، وتعزل من تشاء من أزواجك، فلا تأتيها بغير طلاق، وتأتي من تشاء فلا تعزلها. فهو تشريع يرفع الحرج، ويبين للناس ويعلمهم بأنه صلى الله عليه وسلم لا يتصرف إلا بتوجيه وإذن من ربه عَزَّ وجل حتى في خاصة نفسه مع أهله. وفي هذا إظهار لأهمية المرونة في الحكم الخاص برغبات الإنسان، وفق ضوابط محددة. فإذا كان هذا في حكم الله تعالى، فإنه يعطي ويُظهر أهميته بين الناس في التعامل. وعند سن الأنظمة واللوائح التي تنظم العلاقات في الإدارة والمهنة وغيرها مما يدخل تحت المصالح المرسلة من المستجدات والحاجات.

ثم ذكر تبارك وتعالى ﴿ وَتُـٔۡوِىٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَ ﴾ أي: فيما يتعلق بأن تضم امرأة من زوجاتك ممن عزلت من القسمة. قال القرطبي رحمه الله تعالى: ابتغيت: أي: طلبت. والابتغاء: الطلب. وعزلت: أزلت، والعزلة: الإزالة. أي: إن أردت أن تُؤوي إليك امرأة ممن عزلتهن من القسمة، وتضمها إليك، فلا بأس عليك في ذلك. وكذلك حكم الإرجاء. فدل حكم أحد الطرفين على الثاني[٢] ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَ ﴾ فلا حرج ولا لوم ولا عتب عليك، فالجناح هو الميل. فلا ميل عليك

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠٩/٦)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٩/١٤)

باللوم ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ فذلك التخيير الذي خيرناك في صحبتهن أقرب إلى رضاهن، وذلك بعلمهن أن هذا أمر الله تعالى، وبالتالي ينتفي عنهن وقوع الحزن ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ ولا يكن منهن حزن على ما يفوتهن فيما يكون منك معهن، فيحصل منهن الرضا بذلك ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ ويوافقن كلهن عن رضا منهن على ما تعطيهن من قليل أو كثير، ومن تقريب أو تأخير. بل يكون قد قررن ذلك بأنفسهن، كما نقل ابن جرير عن ابي رزين رحمهم الله تعالى، أنه: لما أشفقن أن يطلقهن، قلن: يا رسوا الله: اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت(١) وبالتالي تحقق الرضا منهن بكل ما يكون من الرسول صلى الله عليه وسلم معهن. وفي كلمة ﴿كُلُّهُنَّ﴾ يفيد أنه أجمع جميع زوجاته صلى الله عليه وسلم على هذا الرضا من غير استثناء. وهذا مدح لهن كذلك. وفي هذا تطيّبُ لخاطر النبي صلى الله عليه وسلم، وإخبار لهن ولغيرهن عما في أنفسهن للنبي صلى الله عليه وسلم من الطاعة والامتثال حتى فيما يتعلق بالقلوب من الرضا. فرضي الله عنهن أجمعين. مما يفيد عناية الله تعالى بشؤون نبيه صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بعظيم علمه ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ فإن الله جَلَّ في علاه واسع العلم، فيعلم ما تكنه الضمائر عموماً، ومن ذلك: الميل لبعضهن قلبياً، وذلك مما يحمله الأزواج من تفاوت المحبة لأزواجهم، تنبيهاً للعباد على علمه بالقلوب، وما تخفيه السرائر. فهو العليم بأن العبد لا يملك أن يصرف قلبه عن ذلك الميل، وبالتالي عليكم العدل في الحقوق، وأما القلوب فلا تملكون التصرف فيها.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى قوة علمه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ فربكم واسع العلم، عليم بكل شيء، وواسع في الحلم، فلا يُسارع بالعقوبة والجزاء. وبما يفيد التحذير من الحيف والجور وعدم العدل. وبأن لا يُفسر حلمه بعدم التسريع في العقوبة عن رضاه، بل لأنه سبحانه وتعالى حليم، فلا تغتروا بحلمه، فتتمادوا في الخطأ. فسبحان الله العظيم الحليم.

ومن دقائق البيان أن ذكر الله تعالى شمولية علمه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ بعد أن ذكر خصوصية علمه بما في قلوب الْمُخَاطَبين ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ فهذا شيء من عموم علمه عَزَّ وجل، فإن علمه حاصل بكل شيء، كما أن حلمه في كل شيء، بل ورد مطلقاً من

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/١٣٩)

غير تخصيص ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ وبصيغة الماضي، ليفيد جميع ما مضى وما هو كائن وحادث، ولما سيكون قبل أن يكون.

وبعد أن استقر الوضع الأسري بأحكام الله تعالى، يخبر عَزَّ وجل بشأن الزواج بغير زوجاته صلى الله عليه وسلم ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ فلا يحل لك أيها النبي ﴿ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ زوجاتك الموجودات ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ ولا أن تطلق بعضهن، لتأخذ بدلهن، وبهذا الحكم الرباني قد حصل لهن الأمن من الضرائر، ومن الطلاق، فكما حكم عليهن سبحانه وتعالى بما هو لرسوله عليهن، فقد حكم لهن سبحانه وتعالى من عنده. فقضى عَزَّ وجل أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، وبالتالي لن يكون بينه وبينهن طلاق وفراق. ثم أكد ذلك الحصر عليهن فقط، بأنه حتى ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ فمهما كان حسنهن، ورغبتك فيهن لذلك الحسن بالزواج منهن، فهو ممتنع عليك أيها النبي، صلى الله عليه وسلم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى بعد أن ذكر تعدد الأقوال. قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: ولا أن تطلق أزواجك فتستبدل بهن غيرهن أزواجاً. وذكر أيضاً: إنما نُهِي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية أن يفارق من كان عنده بطلاق أراد به استبدال غيرها بها، لإعجاب حسن المستبدلة له بها إياه، إذا كان الله قد جعلهن أمهات المؤمنين، وخيرهن بين الحياة الدنيا والدار الآخرة، والرضا بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة. فحرمن على غيره بذلك، ومُنع من فراقهن بطلاق[1]

ثم استثنى سبحانه وتعالى السراري ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الجواري، فذلك جائز لك. وفي هذا معالجة منه سبحانه وتعالى لما يحدث في القلوب من الإعجاب والرغبات، بأن أحكام الله تعالى هي ضابطة للاسترسال في الأمر، وكما أباح الله تعالى لنبيه ما أباح، فقد جعل لذلك حدوداً وضوابطاً. مما يفيد أن الله تعالى ضبط تصرفات وأمور العباد عموماً بالأحكام الشرعية، حتى لا يحصل الاسترسال منهم في الأمور التي تُفسد عليهم حياتهم. فجاءت أحكام الله تعالى ضابطة للنفوس عند استرسالها في رغباتها، وعند امتعاضها، وعند كرهها، حتى يكون تصرف الإنسان منضبطاً التشريع المُحَاطُ بالأحكام الضابطة لمسلكه، وليس بما يطرأ عليه من الأهواء. فالحمد لله تعالى على أحكامه وتشريعه.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/١٤٠)

ثم يبين ويذكر سبحانه وتعالى بصفة من صفاته الكريمة التي تجعل من المؤمن ضابطاً لنفسه، ووفق مراد ربه تبارك وتعالى وأحكامه وتدبيره، فيقول عزَّ وجل ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ فإن ربكم أيها العباد مراقب لكل شيء، فلا يفوته شيء أبداً، ومنها أحوالكم، كما أنه سبحانه وتعالى عالم بما يصلح لكم، وما يضركم، فيدبركم بأحكامه وقضائه أحسن وأكمل تدبير. مما يفيد أنه لو تُرك التدبير للإنسان لأحدث فوضى مع غيره في التصرفات، ولأجحف في حق غيره، نتيجة ميوله وإعجابه، المتغير والمتبدل. فالحمد لله على ما دبرنا، وهدانا ووفقنا له بمنه وفضله وإحسانه تبارك وتعالى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) ﴾

بعد بيان الله تعالى لحقوق وأحكام وآداب شأن البيت النبوي ينتقل البيان إلى تشريع أدب دخول المؤمنين إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول عزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ بدأ التوجيه الكريم بنداء المؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يا من صدقتم بالله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وبما جاءكم من الحق من ربكم، ارعوا سمعكم، وانتبهوا لما يخبركم به

ربكم سبحانه وتعالى، وقد ورد النداء بصفة الإيمان، بما يدل على أن التزام ما يقال لكم هو من متطلبات ومقتضيات الإيمان الذي آمنتم به. وفيه حثهم بالمدح والثناء عليهم بخصيصة الإيمان، ومنزلتها.

ثم يوجههم ربهم تبارك وتعالى إلى أدب دخول بيوته صلى الله عليه وسلم ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ امتنعوا، وامنعوا أنفسكم عن دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا في حالة دعوتكم إلى طعام عنده صلى الله عليه وسلم. ونسب الله تعالى البيوت للنبي عليه الصلاة والسلام باعتبارها مكان أهله، وراحته. بينما في مقام آخر نسب البيوت للزوجات في قوله تعالى من هذه السورة الكريمة ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ وقوله تعالى ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ فبحسب المقصد تُنسب البيوت، تارة للزوجة، وتارة للزوج. بما يفيد الاستواء في ذلك، ويكون التعيين بحسب المقصد الذي يتضمنه السياق.

فالمنع ورد عاماً ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ ثم ورد الاستثناء من الأصل ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ إلا حال أن تُدعون إلى طعام في بيوته عليه الصلاة والسلام، وكانت بيوته تسعة، لكل زوجة بيت مستقل ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ غير منتظرين ﴿إِنَىٰهُ﴾ أي: نضج الطعام، وبلوغه درجة الاستواء. بما يفيد ادخلوا حين نضوج الطعام واستوائه، ولا تدخلوا وتحضروا قبل تهيئته وتجهيزه بوقت يحدث به مشقة. بما يفيد أن يكون الحضور والخروج من غير طول وقت، فَيَحْدُثُ به مشقة على الرسول صلى الله عليه وسلم. لئلا يتأذى النبي عليه الصلاة والسلام من كثرة انتظاركم الطعام، ثم انتظار انصرافكم، فينشغل بمن عنده من الجلساء عن شؤونه. وقد ورد الإذن من غير ذكر للآذن لهم ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ فقد يكون الإذن من الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد يكون من إحدى زوجاته عليه الصلاة والسلام، وقد يكون ممن يُوكَل إليه الإذن للضيوف. فهناك ثلاثة آداب، وهي: الإذن، وأن يكون الدخول بقصد الطعام، والثالث: غير ناظرين إناه، أي: نضجه واستوائه.

ثم تلى ذلك الأدب، أدب آخر ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ وهو الإذن العام، بأن إذا دُعُوا دخلوا، فيكون هذا تخصيص من المنع العام الذي هو ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ فإن حصلت لكم دعوة فادخلوا ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ فإذا أكلتم وتناولتم ما قَدَّمَه لكم من طعام، فانصرفوا ولا تجلسوا، بل اخرجوا، بانتشاركم في أموركم، ولا تمكثوا استئناساً بالحديث ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ فلا يجعل منكم

الأنس بالحديث أن تمكثوا في بيت النبي صلى الله عليه وسلم. وفي هذا دليل وفائدة عظيمة، بأن من يجالس النبي عليه الصلاة والسلام فإنه يستأنس بالحديث معه، إلى درجة أنه لا يرغب في القيام وترك الأنس به وبحديثه صلى الله عليه وسلم، وكذلك يفيد جمال الحديث في حضرته صلى الله عليه وسلم، بما يحصل فيه من الأنس. مما ينبه إلى أنه في عموم الدعوات بين المؤمنين أن لا يحرجوا من دعاهم بطيلة الجلوس استئناساً بحديث بعضهم لبعض، فلا يعلمون عن حال من دعاهم، وحاجته للوقت.

ثم يبين تبارك وتعالى أثر ذلك المكوث الطويل بعد تناول الطعام في بيوت النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول عزَّ وجل ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ فإن ذلك المكث يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم، فيتأذى عليه الصلاة والسلام من الجلوس الطويل، وذلك لحاجته إلى الوقت. وسماه سبحانه وتعالى أذى، ولم يسمه ضرر، لأن الأذى يحصل به سوء حال، بما يكدر النفس دون أن يلحق بها ضرر، فقد يتأذى الإنسان نفسياً دون أن يلحقه ضرر. إذ أن هناك الأذى القلبي، نتيجة وجود الحاجة للوقت الذي ربما لا يلحق بفواته ضرراً، ولكن ربما تفوت به منفعة. وهذا من دقائق البيان القرآني الكريم. كما أن في هذا دلالة على أهمية الوقت، وأهمية استثماره، وبأن لا تُجعل المؤانسة مشغلة عن الأولويات. وفيه بيان لأهمية الوقت عند الرسول صلى الله عليه وسلم. وأن القائد لا يُلزِم غيره بما هو عليه من الجد، بل يشير عليهم، مراعاة لاختلاف الناس، واختلاف قدراتهم وطبائعهم.

وفي النهي بأسلوب بيان حصول الأذى ما يفيد أن الصحابة رضي الله عنهم، كانوا يحرصون حرصاً شديداً بأن لا يتأذى النبي صلى الله عليه وسلم بأقل درجة من الأذى، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يشعرهم بتأذيه من لطفه بهم. فورد النهي بما يناسب تحرزهم الشديد. لأن النبي صلى الله عليه وسلم هو أغلى ما عندهم، حتى من أنفسهم. وأفادت ﴿كَانَ﴾ من قوله تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ إثبات التأذي، بأنه كائن ومتحصل، ولا يشعرهم بذلك عليه الصلاة والسلام لطفاً ومحبة لهم. مما يفيد المؤمنين بأهمية احتمال الغير حين يحدث منهم ما قد يتأذى به. وأن على الفطن منهم أن ينبه غيره بذلك، كما نبه الله تعالى المؤمنين.

ثم يبين سبحانه وتعالى خُلُقَ الحياء عند رسوله صلى الله عليه وسلم، والتي تمنعه من أن يظهر تأذيه صلى الله عليه وسلم لأصحابه الكرام رضي الله عنهم ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ فبالرغم من مكانته ومنزلته إلا أنه لا يُشعرهم بما يتأذى به، حياء منهم. مما يفيد قوة وعمق حياء النبي صلى الله عليه وسلم من أن يجرح أو يحرج أحداً بكلمة غير لائقة، أو بإشارة أو نحوها، مما يدل على تصبره، وعدم إظهار ما يدل على تضجره. مما يفيد عظمة مكارم أخلاقه صلى الله عليه وسلم. مما يعلم اتباعه كيف يكونون مع غيرهم. كما يفيد ذلك أهمية الصبر والتصبر، وتقديمه على إظهار التضجر. كما يفيد هذا التوجيه الرباني من أن الناس يختلفون في حاجتهم

للوقت، وأن على المرء بأن لا يُطيل الجلوس مهما بلغت درجة الاستئناس في علوها. ومن دقائق البيان: أن كلمة ﴿فَيَسْتَحْيِۦ﴾ وردت بصيغة الفعل المضارع المستمر، الذي أفاد استمرار ملازمة الحياء له منكم صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أن سكوته عن أمر يخصه، لا يدل على موافقته واستحسانه، وإنما عامل الحياء له أثره في إخفاء ما يتأذى به عليه الصلاة والسلام. وقياساً على ذلك أن على الإنسان أن يراعي غيره، فلا يتمادى في بعض الأمور المباحة، فربما أنها تؤذي من يستحي من البوح بها لغيره، إكراماً وحياء.

ثم في بيان الله تعالى للحق ما يُعلِّم المؤمنين أن لا يستحوا من قول الحق، والحق هو ضد الباطل ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فلا يترك بيان الحق، فإن الله سبحانه وتعالى لا يمتنع منه أبداً، لأنه هو المشرع لكم بالحقائق التي تناسبكم، وتتوافق مع طبائعكم. فيخبركم ولا يجاملكم، لأنه ربكم الذي يعلمكم ما ينفعكم. كما يفيد هذا أن على المؤمن بأن لا يستحي من بيان الحق، وإظهاره بأدب. ولكن في حقه صلى الله عليه وسلم مع غيره مناسب لطبيعة النفس الكريمة. ولكن لو كان ذلك في حق غيره لأظهره صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أن الإنسان قد يستحي في إظهار حقه، فوجب على غيره إظهاره وبيانه. وبالتالي فإن الله تعالى لا يستحي من بيان الحق لكم، وإعلامه لكم. كما يفيد: أنه إذا استوجب الأمر إظهار وإعلان ما يجب من الحق فيجب على القادر أن يظهره، ويُعَرِّف به ويذكره، ليرفع عن المستحي ما استحى من إبلاغه وإظهاره.

ومن دقائق البيان الكريم أن السياق في قوله تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ أن فيه قصر نفى الحياء على المتعلق بكم فيما يخصه صلى الله عليه وسلم، ومقصور على ذلك فقط، فالرسول عليه الصلاة والسلام يستحي منكم فيما يخصه، وبالتالي فإنه لا يعني أنه يستحي من الحق وإظهاره وبيانه على وجه العموم، ولكن لما أن الحق متعلق به، صبر على ذلك إكراماً لأصحابه صلى الله عليه وسلم. فأورد السياق الكريم أن الحياء خاص به معكم فيما يخص علاقته معكم فقط، وهو الحياء الاجتماعي المتعلق بالمعاشرة، أي معاشرته لكم. فاستحى مما يخصه منكم. ولم ينسب السياق أن الحياء متعلق وكائن من الحق. ولذلك ورد نفي الحياء عن الله تعالى في قول الحق، لأنه يخص نبيه صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فالنفي هنا هو المتعلق بالحق، فنفى سبحانه وتعالى عن ذاته الحياء من الحق، بينما كان إثبات حياء النبي صلى الله عليه وسلم فيما هو متعلق بما يخصه عليه الصلاة والسلام حال إكرام أصحابه في بيته. وبالتالي يكون نفى الحياء مخصوص بقول الحق فيما يخصه منكم. بما يفيد تحمله لكم من أجل إبقاء مودة المعاشرة. مما يفيد أهمية التحمل والتحامل على النفس بقدر الاستطاعة من أجل حفظ المودة، وطِيب المعاشرة. كما أن فيه أهمية الانتباه من العقلاء لما يزيل الحرج عن الغير، إذا لم يتنبه غيرهم إليه، ويكون ذلك بالحكمة، وبما يناسب المقام.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى أخلاق وآداب التعامل والتخاطب مع زوجاته صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ فلما أن الحاجات متبادلة بين المؤمنين من خلال البيوت؛ فإن الله تعالى يضع ويُشرع الآداب الضابطة لذلك التعامل، فيخبر عَزَّ وجل المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليهم وسلم: بأنه إذا كان هناك أمر تطلبونه من زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم من المتاع، وهو ما ينتفع به الإنسان من غير تحديد وتعيين لنوعه، ليشمل كل متاع من حاجات كطعام أو شراب، أو إناء، وغير ذلك من حاجات الناس التي تدخل في المتاع، فتطلبون متاعاً من زوجات رسولكم صلى الله عليه وسلم ﴿ فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ فليكن سؤالكم لهن من وراء ستر، يحجبكم عنهن، فجملة ﴿ مِن وَرَآءِ ﴾ تدل على أنه من خلف، ودلالة كلمة ﴿ حِجَابٍ ﴾ تدل على ساتر يحول بينكم وبينهن. قال ابن كثير رحمه الله تعالى في معنى ذلك: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن. فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب[1] مما يبين تعظيم التأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى مع زوجاته، بتوقيرهن توقيراً يدفع كل محتمل من مظان السوء. مما يبين أهمية ذلك وأولويته مع بقية النساء، فإذا كان ذلك ممنوع مع أمهات المؤمنين، ومن الصحابة الأجلاء، فكيف بغيرهن من بقية نساء المؤمنين. فإن النهي في حقهن يستلزم الاقتداء بهن رضي الله عنهن وعن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن علة وسبب الحكم بذلك ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ فذلكم الحكم بسؤالهن من وراء حجاب هو زيادة في كمال الطهر. بل من دقائق البيان الكريم أن أثبت الله تعالى طهارة قلوبهم وقلوبهن، وهذا النهي هو من باب الزيادة. فدلالة ﴿ أَطْهَرُ ﴾ تفيد التفضيل والارتقاء في مزيد تحقيق الطهر، فهو أطهر في النقاء، بما ينفي الريبة، بما يفيد إثبات طهارة قلوبهم وقلوبهن، ولكن هذا زيادة تفضيل في طهارة قلوب الصحابة رضي الله عنهم، وزيادة تفضيل على ما هي عليه قلوب زوجات النبي عليه الصلاة والسلام، ورضي الله عنهن. ففي البيان الكريم دقة في إثبات طهارة القلوب، وأن النهي ليس معالجة لشيء حادث في القلوب، بل توقي وحرص، ومزيد طُهر لقلوبكم وقلوبهن. ولتتعلم الأمة هذا الأدب، وتتنبه وتتوقى من ذلك، وحفظاً ومنعاً لخواطر السوء التي تحدث للرجال في أمر وشأن النساء، أو تحدث من النساء في الرجال. مما يوجه المؤمن بأن يأخذ أمره بالتحوط، ولا يجعل الثقة في النفس تغلب عليه، بل يأخذ بالحذر.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥١٣/٣)

ولما أن هذا الأمر خاص بالجنس البشري، جمع الله تعالى بالتنويه عن قلوب الطرفين ﴿ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ مما يفيد: أنه إذا كان أدب التحوط هذا قد ورد في شأن الصحابة رضي الله عنهم مع زوجات النبي صلى الله عليهم، فإنه يكون أشد وجوباً ولزوماً في بقية المؤمنين. وفي هذا دليل على عظيم شريعة الله تعالى، إذ تتحوط للعباد بأحكامها في كل شأن، ومنها المحادثة بين الرجال والنساء. مما يعلم المؤمن أخذ الحيطة والحذر في كل شأن يمكن أن يحدث منه مكروه، وبأن لا يجعل الثقة في نفسه هي المرتكز.

ثم يعلل سبحانه وتعالى ذلك بما هو واجب على المؤمنين من الامتناع عن إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ فما صح ولا استقام لكم أن يحدث منكم شيئاً يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن جملة ذلك أن تدخلوا بيوته من غير إذن منه، ولا أن تلبثوا فيه بما يزعجه، ولا أن تخاطبوا زوجاته من غير حائل يحجبهن عنكم. وهو نهي عام، ليستوعب كل مصدر للأذى، مهما كان نوعه وقلته، فهو نهي قاطع لكثيره وقليله، ولنوعه.

ثم عطف عليه سبحانه وتعالى منع نكاح زوجاته من بعده صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ ولا كان لكم ولا صح ولا استقام لكم أن تتزوجوا زوجاته بعد وفاته عليه الصلاة والسلام حين يتوفاه الله تعالى. بل وأكده سبحان وتعالى بلفظة التأبيد ﴿ أَبَدًا ﴾ التي أفادت القطع بثبوت هذا الحكم. لأنهن أمهات للمؤمنين، فيحرم عليكم نكاحهن. وقد ورد النهي بأسلوب التأكيد ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ ﴾ الذي أفاد المنع المؤكد، بنفي الاستحقاق والإذن والسماح ابتداء، كما أفادت ﴿ كَانَ ﴾ وما سبقها من النفي ﴿ وَمَا ﴾ الاستبعاد الزمني والفعلي ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ ﴾ ليدل على التحريم، بالنهي الشديد، المقطوع في شأنه، فلا مجال فيه للاجتهاد.

ثم زاد التأكيد بتعظيمه عند الله عزَّ وجل ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ فقد عظمه الله تعالى، بما يعني أنه يترتب عليه الذنب العظيم، والشأن الشديد في جرم وقوعه. مما يفيد عناية هدي الإسلام بالأخلاق الكريمة، ومحاربة أدنى أسباب المساوئ. مما يحفظ به العلاقات بين الناس. كما يدل ذلك على أن مكارم الأخلاق والآداب من أقوى وسائل الترابط الاجتماعي، وأنه بها تندفع الريبة ومساوئ الأخلاق.

ثم يخبر الله تعالى عباده بكمال علمه، وإحاطته بأعمال عباده جميعاً ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ فإن أبديتم شيئاً، ولو يسيراً، أو أخفيتم شيئاً ولو يسيراً مما تكونون عليه

من أحوالكم الظاهرة والباطنة ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء، وهو تعميم عام، ومن ذلك ما تُبدون وما تُخفون من أحوالكم. وقد وردت ﴿ شَيْـًٔا ﴾ الأولى: ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ لتفيد التخصيص مما تبدون أو تخفون، ووردت بصيغة العموم فيما يكون منهم، لتستوعب كل شيء منهم، بينما وردت ﴿ شَيْءٍ ﴾ الثانية: في قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ عامة لتستوعب كمال علمه عَزَّ وجل بكل شيء، ومنه ما يكون من أحوالكم. وفي هذا وعد ووعيد، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وفي هذا وعيد شديد، لأن إحاطته بالمعلومات تستلزم المجازاة، على خيرها وشرها[١] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: كلام جامع، تحرضاً وتحذيراً، ومُنبِئ عن وعد ووعيد، فإن ما قبله قد حوى أمراً ونهياً، وإذا كان الامتثال متفاوتاً في الظاهر والباطن، وبخاصة في النوايا والْمُضْمَرَات كان المقام مناسباً لتنبيههم وتذكيرهم بأن الله مطلع على كل حال من أحوالهم في ذلك، وعلى كل شيء[٢] فلا يخفى على الله تعالى شيء من أعمال الناس وأفعالهم وأقوالهم، وما تكن صدورهم، وما يُظهرون وما يعلنون، مما يفيد: أنه يجب أن يكون تعاملكم مع الله تعالى وفق هذا الشأن، والذي سيكون أكبر ضابط للإنسان في حياته، وأقوم قوة للسلوك وانضباطه.

وبعد بيان الحكم من الله تعالى فيما يتعلق بالتخاطب وسؤال المتاع، ووجوب أن يكون من وراء حجاب، ينتقل البيان من الله العزيز الحكيم إلى تعيين من يحق أن تظهر المرأة أمامهم بغير حجاب من المحارم ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ فلا إثم عليهن في عدم الاحتجاب من آبائهن، وابنائهن، وإخوانهن، وأبناء إخوانهن، وأبناء أخواتهن. ولم يذكر من الرجال الأعمام والأخوال باعتبار أن الإذن لمن هم دونهم، يجعل الأعمام والأخوال من باب أولى، خاصة وأن الأعمام والأخوال بمنزلة الوالدين. فهؤلاء يجوز للمرأة أن تظهر أمامهم بدون حجاب.

ثم تناولت الآية الكريمة معاشر النساء باعتبار الجنس، ليفيد التعميم ﴿ وَلَا نِسَآئِهِنَّ ﴾ أي: نسائهن المؤمنات، لأن النص الكريم لم يقل: والنساء، بل قال تعالى ﴿ نِسَآئِهِنَّ ﴾ أي: عن النساء المسلمات، لأنه أضاف النساء لهن ﴿ نِسَآئِهِنَّ ﴾ من حيث الاشتراك والتماثل في الوصف الذي هو الإسلام. مما يفيد: أهمية

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٩٨/٤)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧٩/٩)

الاحتجاب عن النساء الكافرات، لأنهن غير مؤتمنات على العورات. قال أحمد رحمه الله تعالى: لا يحل للمسلمة أن تكشف رأسها عند نساء أهل الذمة، واليهودية والنصرانية، ولا تُقَبِّلان المسلمة[١] فيعم ذلك جميع غير المسلمات. ومن أسباب وعلل استثناء غير المسلمات لما قد يكون منهن من الوصف والنعت للمسلمات عند أزواجهن. بينما المسلمة تعرف أنه لا يجوز للمرأة أن تصف المرأة عند زوجها؛ وعند الرجال عموماً، لما قد ينتج ويترتب على ذلك الوصف من المفاسد، والتشوف لرؤية الموصوفة. أو ربما تعلق قلبه بها. فالإسلام يسد الذرائع المؤدية إلى المكروه والمحرم. وتشريعه كله أدب وحياء، وفي هذا الأحكام الشرعية ما يدرأ بها المفاسد.

ثم ذكر تبارك وتعالى الذين تملكهم المرأة من الرجال ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ ﴾ وهم الإماء. أرقائهن من الذكور والإناث. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ظاهر الآية يشمل العبيد والإماء، من غير فرق أن يكونوا مسلمين أو كافرين[٢] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: ولا يجوز أن ينظر إلى غير وجهها وكفيها. وقد نص أحمد على أنه لا يجوز أن ينظر إلى شعر مولاته[٣] وذلك لأنها سيدته، وتديره في كثير من شؤون الخدمة، وفي ذلك رفع مشقة الحرص والتحرص من كثرة تردده عليها، كما أن مُلكها له يجعل النفس تترفع من أن يكون هناك شيء منها له، أو منه لها.

ثم يأمر تبارك وتعالى بالتقوى ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ﴾ أي: واخشين ربكن في الخلوة والعلانية، فإنه سبحانه وتعالى شهيد على كل شيء، فلا تخفى عليه خافية. مما يفيد التنبيه والتحذير من أن تكنّ على خلاف ذلك. والأمر بالتقوى لأنها تجمع المراقبة والخوف من الله تعالى، والرجاء لرحمته، فالخوف يمنع من المعصية، والرجاء يدفع للطاعة، وهو أمر علاجي عظيم، فمن اتقى تحرز، وتخوف، وابتعد عن مظنة الفتنة. ثم أكده سبحانه وتعالى بالإعلام والتذكير بأنه عَزَّ وجل مطلع على كل شيء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴾ فإن الله ربكم شاهد على ما يفعلن من الاحتجاب، أو تركهن للحجاب، أو لبعضه، مما يستوجب أن تتقين الله عَزَّ وجل، بحيث لا تلقين ربكن بمعصيته، ومخالفة أمره.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٣٥٦/٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٤/٤)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٣٥٦/٥)

يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾

ينتقل السياق والبيان الكريم إلى الإعلام والإخبار من الله تعالى بمنزلة ومكانة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في الملأ الأعلى، بأنه محل الثناء والمدح، والذكر الجميل، بما يفيد كماله، ورفعة منزلته ومقامه عند ربه سبحانه وتعالى، وعند ملائكته أجمعين، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ يُثْبِتُ اللهُ تبارك وتعالى كمال ثنائه على رسوله صلى الله عليه وسلم من خلال الإعلام والإخبار عن هذا الثناء في كتابه العزيز، وتخليده في القرآن العظيم، وأن هذا الثناء كائن في الملأ الأعلى، وأن الملائكة كذلك يثنون عليه صلى الله عليه وسلم، مما يدل على محبة الله تعالى له، وعظيم منزلته، ورفعة درجاته ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ وبدأ البيان بنون التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ التي تؤكد ما بعدها من البيان، وذلك زيادة في التفخيم والتعظيم. وعطف صلاة ملائكته سبحانه وتعالى على صلاته تبارك وتعالى، امتثالاً ومحبة للنبي صلى الله عليه وسلم، ليدل ذلك على كمال محبته عليه الصلاة والسلام عند ربه في الملأ الأعلى، وعند جميع ملائكته. ثم أنه تبارك وتعالى لم يخص نوعاً من الملائكة، بل جمعهم جميعاً، ليدل على جميع الملائكة باختلاف منازلهم، فإنهم يصلون على النبي عليه الصلاة والسلام، وقد تشرفت الملائكة في هذا البيان بأن نسبهم سبحانه وتعالى إليه عَزَّ وجل ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ ﴾ ليفيد التبجيل لهم، والمدح والثناء، بإضافتهم إليه تبارك وتعالى. كما أن ورود فعل الصلاة جاء بصيغة المضارع المستمر ﴿ يُصَلُّونَ ﴾ لتفيد الاستمرار والتجديد والتكرار والتعاقب والتكثير. لتعطي دلالة عظيمة لمنزلته صلى الله عليه وسلم، والحفاوة التي له عليه الصلاة والسلام عند ربه عَزَّ وجل، وكذلك في الملأ الأعلى.

ثم بعد الإخبار بالمنزلة العظيمة والمكانة الرفيعة لرسوله صلى الله عليه وسلم، وثناء الملائكة على النبي عليه الصلاة والسلام؛ أورد الله تعالى الأمر للمؤمنين بأن يتأسوا بربهم سبحانه وتعالى وبملائكته، فيصلوا عليه صلى الله عليه وسلم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ يا أيها المؤمنون قد اقتضى الأمر منكم وجوب الصلاة على النبي محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ ﴾ يجب عليكم وجوب أمر من ربكم أن تصلوا عليه، وكذلك تسلموا عليه. بل ورد الأمر بصيغة المبالغة ﴿ وَسَلِّمُوا۟

تَسۡلِيمًا ﴾ فكلمة ﴿ تَسۡلِيمًا ﴾ مفعول مطلق، يفيد المبالغة، التي تستوجب الإكثار المؤكد، وبذل أقصى ما يستطيع المؤمن من الصلاة والتسليم على الرسول صلى الله عليه وسلم. مما يفيد عظيم منزلته عند الله تعالى في الملأ الأعلى، وأن عليكم أيها المؤمنون بما يخصكم في الدنيا من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم. وبدأ الأمر من الله سبحانه وتعالى بصيغة النداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ ثم تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ليفيد: شد الانتباه، بأن ترعوا سمعكم وانتباهكم لِمَا تضمنه النداء لكم، كما أن في تسميتهم بالمؤمنين، تزكية لإيمانهم، ومدحاً وثناء لهم. ثم تلاه الأمر بعد أن هيأه عَزَّ وجل بالتعظيم.

والصلاة في أصل دلالتها الدعاء، بطلب الخير. وقد ذكر ابن كثير: قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء. وقال ابن عباس: يصلون: يبركون. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: والمقصود من هذه الآية: أن الله تعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه. ثم أمر سبحانه وتعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً[١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره[٢] فالصلاة من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم: رحمته ورضوانه وثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء والاستغفار. ومن المؤمنين: التبريك والدعاء والتعظيم. بقولهم: اللهم صل وسلم على نبينا محمد.

فاجتمع فيها الصلاة والتسليم على الرسول عليه الصلاة والسلام. وجُمعت في تشهد الصلاة. فقد أتى رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: سمعت الله يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ فكيف الصلاة عليك؟ فقال عليه الصلاة والسلام (قل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد، وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد) وذكر قبل ذلك الطبري رحمه الله تعالى معنى التسليم: وسلموا عليه ﴿ تَسۡلِيمًا ﴾ يقول: حَيُّوه تحية الإسلام [٣] وفي صحيح البخاري رحمه الله تعالى: أنه سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كيفية الصلاة عليه. فقال عليه الصلاة والسلام (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥١٤/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٩/١٤)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧٥/١٩)

كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد) [١] فاتضح بذلك كيفية الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

وذكر الطبري رحمه الله تعالى عن معنى التسليم: وسلموا عليه ﴿تَسۡلِيمًا﴾ يقول: حَيُّوه تحية الإسلام[٢] وفي ضم الآل في الصلاة إلى النبي عليه الصلاة والسلام ما يفيد انتفاع جميع زوجاته، والمؤمنين أجمعين، على القول بأن آل النبي هم أهل بيته ومن آمن به. ومِن فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم قوله عليه الصلاة والسلام (من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا) [٣] اللهم صل وسلم على نبينا محمد، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد، وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

ومن دقائق السياق أن بدأ البيان بالمحفز والقدوة، ثم بما يجب أن يقوم به المؤمنون. حيث بدأ بتقرير الله تعالى أنه عَزَّ وجل وملائكته يصلون على النبي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ وهذا من أقوى المحفزات الدافعة للامتثال، ثم تلاه الأمر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ كما حفزهم بعظيم الثناء عليهم، حيث سماهم بالمؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وكذلك ناداهم بياء النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ الذي يفيد طلب الإقبال، وشد الانتباه، لأمر في غاية الأهمية. كما أن من عظيم كرم الله تعالى أنه يُثيب من أطاعه. كما ورد في الحديث الذي سبق ذكره، وهو قوله صلى الله عليه وسلم (من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا)

وبعد أن أوضح تبارك وتعالى منزلة نبيه الرفيعة صلى الله عليه وسلم، وأمر بتعظيم وإجلال رسوله عليه الصلاة والسلام، يُحذر تبارك وتعالى من أذيته، وتوعد من يؤذيه بالخيبة والعذاب المهين، فقال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ إن من يؤذي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فجزاؤهم الإبعاد والطرد من رحمته في الدنيا والآخرة، والوعيد لهم بالعذاب الذي يهينهم ويكسرهم، جزاء وفاقا. قال القطب رحمه الله تعالى: قال الجمهور من العلماء عن أذية الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ﴾ معناه بالكفر، ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه سبحانه وتعالى،

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤٦٧/٢) برقم (٣٣٧٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧٥/١٩)

(٣) مسلم، صحيح مسلم (٣٠٦/١) برقم (٤٠٨) والترمذي (٤٨٥) واللفظ له.

ووصفه بما لا يليق به، كقول اليهود: يد الله مغلولة، والنصارى: المسيح ابن الله، والمشركون: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه[١] فهذا إيذاء لله تعالى من العباد، وسماه إيذاء باعتبار أنه يجلب غضب الله تعالى عليهم. وليس معناه وصوله له سبحانه وتعالى، بل المقصود به بيان قوة ما يترتب عليه من الانتقام.

وأما إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فيكون بالأفعال، وبالأقوال. مما يصدر عنهم من النعوت والأوصاف الخبيثة، كقولهم كذاب، وشاعر، ومجنون، وكاهن، ويشمل من يتنقص منه، ويشتمه ويذمه، وكل ما يعود من الأذى عليه صلى الله عليه وسلم، أو بما يفعلونه من أفعال الأذى، ككسر رباعيته، وشج وجهه صلى الله عليه وسلم يوم أحد، أو فعل شيء يتحقق به الأذى على رسوله صلى الله عليه وسلم. بل ورد الإيذاء بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ يُؤْذُونَ ﴾ ليشمل ويستوعب جميع من كان يؤذيه صلى الله عليه وسلم في حياته، ومن يؤذيه بعد مماته بأي أسلوب من الأذى، إلى أن تنتهي الحياة الدنيا.

فإن هؤلاء الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ واللعن هو الطرد من رحمته سبحانه وتعالى، وقد جمع الله سبحانه وتعالى لهؤلاء جميعاً الطرد من رحمته في الدنيا وفي الآخرة، بما يفيد لا ينالهم إلا الشر والعذاب، وزيادة في مقتهم أن خصهم في الآخرة بالعذاب المهين ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ و الذي يذلهم ويهينهم سبحانه وتعالى فيه. فيجعلهم في احتقار وازدراء.

ثم يتدرج البيان الكريم من التحذير عن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى شأن إيذاء المؤمنين، فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ وقد جاء التحذير والوعيد من إيذاء المؤمنين مباشرة بعد التحذير من إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم، لإظهار مكانة المؤمنين، ولقطع هذا الشأن بتغليظ عقوبة الإيذاء، وبيان منزلتهم عند الله تبارك وتعالى، إذ عطف سبحانه وتعالى الوعيد لمن يؤذي المؤمنين والمؤمنات على ما سبق من الوعيد لمن يؤذي رسوله صلى الله عليه وسلم بواو العطف. فحذر من إيذائهم، وتوعدهم بالمجازاة على كسبهم الإثم بذلك الإيذاء، كما أنه لم يحدد البيان نوع ودرجة الإيذاء، ليشمل قليله وكثيره، وجميع أنواعه ودرجاته، ليظهر ويبين منع جميع أنواع الأذى، بجميع أشكاله ودرجاته وحالاته. فإن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بأي وجه من وجوه الأذى؛ وأنواعه ودرجاته بالقول أو الفعل من غير موجب حق، وإنما بطراً وتعدياً ﴿ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٢/١٤)

أي: الأذى الذي يكون من غير استحقاق يستحقونه لجرم فعلوه أو قالوه. من غير موجب وسبب يستدعي ذلك. بما يفيد أنه إذا كان نتيجة جرم يستحقون عليه الجزاء فذلك لا يُعَد تعدياً. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: فأما الأذية للمؤمن والمؤمنة بما كسبه مما يوجب عليه حداً أو تعزيراً أو نحوهما، فذلك حق أثبته الشرع، وأمرنا الله به[1] فالقصاص وطلب الحق ليس من الأذية.

فمن قام بإيذاء مؤمناً أو مؤمنة بأي نوع من الأذى في ذاته أو ماله أو سمعته، ببهتان يفتريه، أو بأذى يصيبه في نفسه، أو في أخلاقه أو دينه أو عرضه ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أي: تحملوا وارتكبوا ظلماً ظاهراً، وواضحاً لا ريب ولا شك فيه، وقد أكد البيان جرم الإيذاء بأداة التأكيد ﴿ فَقَدِ ﴾ التي تفيد التحقق والتأكيد بما ارتكبوا، وبالتالي فقد ﴿ ٱحْتَمَلُوا۟ ﴾ حَمَّلوا أنفسهم ﴿ بُهْتَـٰنًا ﴾ أي: فرية وكذباً فاحشاً ﴿ وَإِثْمًا ﴾ أي: ذنباً كبيراً، وقد اتصف بالوضوح الظاهر ﴿ مُّبِينًا ﴾ وهو الإثم الذي لا شك ولا لبس فيه. فهما ﴿ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا ﴾ واضحان ظاهران بالإبانة البينة ﴿ مُّبِينًا ﴾ وبالتالي أصبح هذا البهتان والإثم متعاظمان، لانتفاء أي شبهة أو علة أو احتمال للشك. أي: فقد امتنعت كل وسيلة يندفع بها عنهم ما يترتب عليه من الإثم. لأنه حصل على علم وعمد لما قام به من الفرية والتهمة.

ومن دقائق البيان أن أعطت دلالة ﴿ ٱحْتَمَلُوا۟ ﴾ افتعال الأذى، بمجاهدة أنفسهم على فعله. أي صابروا أنفسهم على الإيذاء، وتجلدوا، وتحملوا ما لا يُطاق، مما يبين أن الذي صدر منه الأذى قد جاهد نفسه وصابرها على هذا البهتان، ودافع عن لوم نفسه بالتبرير، حتى تَقْبَل النفسُ ما صار منه من البهتان وارتكاب الإثم، وتتجلد وتتحمل ما لا تطيقه من الافتراء. أي: استقصى لنفسه المبررات الظالمة حتى يُقنع نفسه بما يصدر عنه من الأذى. فهو تصوير دقيق للحالة النفسية التي يكون عليها الظالم المتعدي بظلمه على غيره، وذلك في لفظة واحدة، حيث استوعبت جميع ما كان عليه الظالم من افتراء الأذى ومبرراته، وهذا من الغزارة البيانية الدقيقة في كتاب الله تعالى، والتي تستثير العقل نحو هذه القوة البلاغية التي يقف المرء عندها تأملاً وإعجازاً.

كما أن هذا التَّحَمُّل في التَّقَصُّد من البهتان والإثم الموصوفان بالوضوح الجلي. ما يستدعي الحذر، والتباعد عنه فهو أسلوب علاجي قطعي باستثارة الشعور بالإثم والظلم، والذي يُوقف النفس عن إتيانه، بل تستنكره وتستكره النفوس المؤمنة أن يكون منها ذلك الأذى تجاه غيرها من المؤمنين والمؤمنات. لأن الله تعالى أحاط إتيان الأذى بحكم البهتان والظلم والتعدي الواضح المبين الذي لا غموض ولا شبهة في بهتانه وإثمه. فهو أسلوب قوي في البيان والتحذير، بما يربي الأمة على التعايش الأخلاقي، والبعد عن التهم والظلم، والتهاون في

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٣٠٤)

الأذى مهما كان نوعه، كما يشمل جميع دوائر الحياة، الأسرية، والمهنة، والصداقات، ومن يعرفه ومن لا يعرفه من المؤمنين والمؤمنات، ليفيد حصانة المؤمنين والمؤمنات إلا بموجب حق. وليتأكد بذلك أن أعراض المؤمنين والمؤمنات محرمة من عند الله جَلَّ جلاله.

فهذا التشريع وهذا القرآن نعمة من الله تعالى عظيمة. إذ ترتقي بحياة المؤمنين وسلوكهم إلى أعلى درجات الرقي. كما تُعلمهم بهذا البيان أن يحذروا مما تسوله النفوس الرديئة، والشيطان الرجيم، ورفقاء السوء من التعالي على الغير، وابتغاء الإيذاء، بسبب مرض القلوب من الحسد أو الغل النفسي، أو الكبر. مما يفيد الحذر من الأسباب التي تؤدي إلى إيذاء الآخرين. وليعلم أن جناب المؤمن والمؤمنة عزيز عند الله تعالى، وأن ربنا لا يرضى الظلم أبداً، مهما كان نوعه ودرجته. وهذا من عظيم شريعة الله تعالى، إذ شَرَّعت للمؤمنين ما يكف أذاهم عن غيرهم، بالتنبيه، والتحذير، وبالأحكام والعقوبات الزاجرة. فالحمد لله رب العالمين.

ومن دقائق الحكم أن الله تعالى جعل إيذاء رسوله كفر ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ بينما جعل إيذاء المؤمنين والمؤمنات معصية كبيرة ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ ومن دقائق البيان، وقوة الوعيد والتحذير أن الله سبحانه وتعالى أظهر وأبرز ذِكر المؤمنين والمؤمنات بالتفنيد، وذلك بإفراد الرجال المؤمنين، وإفراد النساء المؤمنات ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ ولم يجمعها في كلمة المؤمنين فقط، لإظهار قوة التحذير، والمساواة في الحكم. فمن فعل شيئاً من الأذية ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أي: تحملوا وارتكبوا ظلماً ظاهراً واضحاً لا ريب ولا شك فيه، باستحقاقهم للعقوبة التي هي ﴿ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ بما يفيد أنهم استحقوا هذا الجزاء، والتصق بهم.

ثم ينتقل السياق الكريم بتدرج وترابط في الأسلوب إلى قضية الاحتشام والتستر بالحجاب من قِبَلِ النساء عن الرجال، فيتوجه الأمر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة؛ بأن يأمر به أهل بيته، وعموم نساء المؤمنين، فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ يأمر الله تعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بأسلوب النداء، الذي هو ياء الخطاب ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ بما يفيد: إرعاء السمع والانتباه، لإفادة الاهتمام بما بعده من بيان وتوجيه، وبما يُظهر الخطاب أنه متعلق بأمر وشأن مهم عنده عَزَّ في علاه. كما

فيه إعلاء لشأن النبي صلى الله عليه وسلم، وإعلاء شأن الموضوع الذي تناوله الخطاب. وبما يفيد يا أيها المؤمنون والمؤمنات انتبهوا وتمسكوا بما خاطبنا به رسولكم الذي أرسلناه إليكم بالهدى ودين الحق.

ثم يلي ذلك فعل الأمر ﴿ قُل ﴾ أي: أخبر وأعلن ما أمرناك بتبليغه ﴿ لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثلاث فئات مأمورات بهذا الحكم من الله تعالى، وهن: زوجاته صلى الله عليه وسلم أولاً: ﴿ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ باعتبارهن قدوة لبنات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولعموم النساء المؤمنات، مما يفيد أن زوجات النبي عليه الصلاة والسلام قدوة لغيرهن من النساء، وأن ما يُأمرن به هو أمر لغيرهن فيما يخص النساء، ما لم يكن شيئاً خاصاً بهن دون غيرهن. ثم التثنية ببنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَبَنَاتِكَ ﴾ باعتبارهن قدوات لغيرهن من بنات المسلمين، وليفيد أن هذا الأمر متعلق بالنساء، ومتعلق بالبنات عموماً، ثم ثالث تلك الفئات: هن عموم نساء المؤمنين ﴿ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيلزمهن ما يلزم نساء وبنات النبي صلى الله عليه وسلم. مما يفيد: أنه كلما علت رتبة الإنسان وجب عليه إظهار القدوة في نفسه وفي أهله جميعاً، فإن الناس ينظرون في أفعالهم واقوالهم وهيئاتهم، ويقلدونهم، ويقتدون بهن.

ثم بعد تحديد الذين قصدهم الأمر والتوجيه، يذكر سبحانه وتعالى المطلوب منهن، بأن ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ ﴾ والدنو: يعني المقاربة من الشيء، والالتصاق به. أي: يلبسن، ويغطين، بإدناء الجلباب: فيتقنعن ويتسترن به، وذلك بشده على الجبين، لأن معنى الدنو: القرب والتقريب للجلباب من الذات ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ ﴾ أي: على أنفسهن ﴿ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ والجلباب هو: ما يكون فوق الثياب من الخمار والرداء الذي يستر جميع ثياب المرأة من أرديتهن وملاحفهن التي تكون فوق الثياب. وفي علاقة الإدناء من الجلباب ما يعني تقريب الجلباب بما يمنع به معرفتهن، بحيث يتم إدناءه على جسمها، بحيث يمنع التعرف عليها. فلا يعرفها بهذا الإدناء أحد من الناس. بحيث تحصل الجهالة لها به من غيرها بالتغطية والإدناء من الجلباب. ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ ﴾ فلا يعرفهن أحد. فتكون العلاقة بين الإدناء من الجلباب وبين الغاية من ذلك هو ما تمتنع به المعرفة ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ ﴾ مما يفيد تغطية ما يُجَهِّل الناظرين إليهن من الناس، فلا يعرفهن أحد نتيجة إدنائهن لجلابيبهن، والشيء الرئيس الذي يُعرف به الإنسان هو الوجه، فإذا سترت المرأة وجهها جهل الناس بها. فدل ذلك على أن امن مقاصده تغطية الوجه، وما يتبعه من دلائل المعرفة، كالصدر والرأس، وتغطية جميع ثيابها،

لمنع إظهار زينة الثياب، بحيث يجهلها من يراها، فلا يميزها أحد عن غيرها، ولا يُعرف مَن هي هذه المرأة المتجلبة بجلبابها.

والغاية والحكمة من ذلك التستر والاحتشام هو ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ﴾ فبذلك الإدناء من الجلباب ما يتحقق به أن لا يميزها أحد عن غيرها ممن يراها، وبالتالي يجهلها من يشاهدها، فلا يعرف من تكون هذه المرأة، فيحصل لهن بذلك أنهن لا يُؤذَين ﴿فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ فلا يتعرضن لأذى الفاسدين والفاسقين، فلا يتعرض لهن أحد بالأذى، لأن التي يعترضها الناس بالأذى هي التي تكشف عن حالها، بالتعريف بنفسها من خلال إظهار مفاتنها وزينتها وتعرية وجهها الذي يعرفها الناس به. ولذلك تُسَمَّى هذه الآية: بآية الحجاب. فلما أن القصد من الحجاب منع الفتنة والإيذاء، فإن المقصود والمعني به الحرائر وغير الحرائر، كالإماء. فالغاية هي الستر والاحتشام، وعدم إثارة الفتنة، ومنع الأذى ممن يتحرش بالنساء. فيدخل في ذلك إظهار الزينة، وإظهار الوجه.

فمع ما سبق من منع إيذاء المؤمنين والمؤمنات، فقد أسنده وقواه الحكم الشرعي بمنع الدواعي والأسباب التي قد تثير أحد أنواع الأذى. مما يفيد أنه يجب على المؤمنين والمؤمنات منع كل ما يُؤَدِّي إلى الأذى، أو يجلبه ويثير الناس نحوه. وأن يتحرز المؤمنات من ذلك أشد التحرز. فيقاس عليه بأن لا يباهي المؤمن بما عنده، ويتظاهر على غير به، فيستدعي من في قلبه مرض أن يؤذيه بكلمة، أو نظرة، أو فعل، أو بغيبة أو نميمة، أو غير ذلك من أصناف الأذى. وكذلك بأن لا يؤذي غيره بما أنعم الله تعالى به عليه من أصناف النعم، والتي منها كذلك نعمة الجمال، ونعمة المال، ونعمة الجاه، وغيرها من نعم الله تعالى التي لا حصر لها.

ثم يختم الله تبارك وتعالى الآية الكريمة بصفحه عما مضى قبل آية الحجاب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فإن الله تعالى واسع المغفرة والرحمة، لمن رجع إلى لحق، وترك الباطل. وهذا من عظيم رحمته تبارك وتعالى، إذ لم يعاقبهم بحجب التوبة عنهم، بل يذكرهم ويحفزهم ويعلمهم أن من صفاته سبحانه وتعالى أنه غفور، وكذلك هو رحيم بعباده ﴿رَّحِيمًا﴾ فلا يعاجلهم بالعقوبة، لعلهم يتوبون ويستغفرون، ويلتزمون بما جاءهم من الحق. وفي هذا دعوة وتحفيز وتنشيط للعقول وللقلوب بالتزام ما يأمر به الله تعالى، فإن الله تعالى يغفر الذنوب التي قد تحصل نتيجة التقصير، ويرحم عباده بالمغفرة والستر للذنوب، مما يفيد أن عليكم بالرجوع إلى الله تعالى حال تقصيركم، وتوبوا إليه، فإنه يقبل التوبة من العبد، ويرحمه برحمته ولطفه سبحانه وتعالى. مما يبين الترغيب في الطاعة، وبأن لا يقنط الإنسان من رحمة الله تعالى مهما حصل من الذنوب والآثام. وبالقياس على ذلك نستفيد كذلك في العلاقات بين المؤمنين، أن يقبلوا من تاب إلى الله تعالى، وأن يقبلوا بعضهم بعضا، ويقبلوا المعاذير من غيرهم.

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

ينتقل البيان الكريم إلى تحذير أصنافاً من أهل الباطل: من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون، بأن الله تعالى ينصر نبيه صلى الله عليه وسلم ويجعله يظفر بهم، ويتسلط عليهم، فَيُبعدهم خارج المدينة إن لم ينتهوا مما هم عليه من الكيد لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. فيقول عَزَّ وجل ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لئن لم يتوقف ويترك أولئك الأصناف الثلاثة في المدينة ما هم عليه من الفتنة والإيذاء للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، لنخرجنهم من المدينة بتسليطك وتقويتك عليهم.

فحدد سبحانه وتعالى الأصناف التي تحمل العداء والخبث للمسلمين ممن هم داخل المدينة، وهم: أولاً: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر. والصنف الثاني: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: في قلوبهم شك وريبة. والصنف الثالث: ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾ وهم الذين ينشرون الأكاذيب، ويخترعون الأباطيل مما لا حقيقة له، ويستخفون ويهُونون من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ويسعون بالفتنة، وإشاعتها بين المؤمنين. وفي تسمية فعلهم بالإرجاف ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾ ما يفيد الكثرة، والتعاقب فيه، لأن الإرجاف يفيد ويعني: الحركة المتعاقبة، والتحريك الشديد، كالزلزلة، لأنها ترجف بالقلوب، وتحركها، مما يفيد أن إرجافهم ليس بالأمر السهل، بل بالشائعات العنيفة التي تهز القلوب، ولكن المؤمن يثق بالله تعالى، فلا يستسلم ولا يتأثر بها.

ومن دقائق السياق أن البيان لم يحصر أعمال هؤلاء الأصناف الثلاثة فقط، ويكتفي بكشفها وبيانها، والتحذير لأهلها، بل أعقب ذلك الوعيد الشديد لهم ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ لتفيد بيان كثرتهم وتعددهم، وتنوع أساليبهم، ولتستوعب كل ما كان ويكون منهم، من الدعوة إلى الشر والفساد بجميع أحواله وأنواعه. بل وعينهم بأنهم من داخل المدينة ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ فهم معروفون ومحددون حتى بنوع ما هم عليه، من: النفاق، وأهل الشك والريبة، الذين هم أصحاب القلوب

المريضة، والمرجفون بالأباطيل الكاذبة. فإن لم ينته هؤلاء عما هم فيه ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل والإبعاد، والتشريد ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وبالتالي فلا يمكثون في المدينة إلا زمناً يسيراً، ثم يتشردون من الخوف والرعب إلى بقية الأمصار، بعيداً عنكم. فيكون انتقام الله تعالى منهم بالتشريد والتهجير. وبالتالي فإن أردتم البقاء في المدينة فالتزموا بما يجب عليكم من الحقوق على من سكنها، والائتمار بأمر رسول الله صلى الل عليه وسلم. مما يبين أن دين الله تعالى قد حفظ لهم حق العيش والسكن في المدينة بالرغم من كفرهم؛ بشرط أن يلزموا ما يجب عليهم تجاه رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. ومن دقائق التهديد أن نسب سبحانه وتعالى التسليط له عَزَّ وجل ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ فالذي يُغري رسوله صلى الله عليه وسلم هو الله سبحانه وتعالى، بتسليطك عليهم فتستأصلهم بالقتل والإبعاد، والتشريد. فالإغراء ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ يفيد معنى الحث والتسليط. وفي نسبته إلى الله تعالى ما يفيد قوة التحذير، والجزم به، وشناعة ما سيحصل لهم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما لهم وما يستحقونه عند ربهم عَزَّ وجل، فإنهم ﴿ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ فإنهم معاقبون باللعن ﴿ مَّلْعُونِينَ﴾ وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى وتوفيقه، فإنهم مُبعدُون ومطرودون من رحمة الله تعالى ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي: أينما وُجِدُوا وحَلُّوا أظفركم الله تعالى بهم، ومكنكم منهم. لأنه قد حلت بهم اللعنة من الله تعالى، فوقعت عليهم المهانة والانكسار والذلة، والتشرد، بسبب إبعاد الله تعالى لهم وطردهم، وإصابتهم باللعن. وأنهم من العقوبة ﴿أُخِذُواْ﴾ أي: أُمسِكُوا وقُبِضُوا وأُسِرُوا ﴿وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ وَنُكِّل بهم قتلاً شديداً وقوياً، ومتعدداً ومتنوعاً في صوره، لأن ﴿تَقْتِيلًا﴾ تفيد التأكيد والمبالغة في التسلط عليهم والتنكيل بهم، بشدة القتل في نوعه، وكثرته وشموليته، وسرعته، فلا إمهال لهم فيه. مما يبين أن من يفسد في الأمة، فإن الله تعالى يسلط عليه، ويخزيه بالذل والمهانة، والتشريد والتقتيل، وسُوء الحال. ليفيد الحذر من السعي في تخذيل الأمة، والسعي في وهنها، وخلق الفتنة في صفوفها، وفي حكامها. وهذا يبين أهمية ضبط وكشف المرجفين والمنافقين، وكل من تسول له نفسه الإرجاف في البلاد بين العباد، بخلق الفتنة والذعر والتشتت والرعب بين الناس، وتفريق الأمة وتشتيت كلمتها ولحمتها، بأن يؤخذ على أيدي هؤلاء، بالتهديد والتحذير أولاً، ثم الاستتابة ثانياً. ثم إقامة حكم الله تعالى فيهم إن لم ينتهوا ويُقْلِعُوا عما هم فيه. ليستتب الأمن، وتنقاد الناس للحاكم المسلم. وتقف أمام الأعداء بقوة وصلابة.

ثم يخبر الله تعالى بأن هذا الحكم على المنافقين والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون بأنها سنة الله تعالى التي لا تتبدل ولا تتغير ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا ﴾ فهذه سنة الله تعالى فيما سبق على الذين اشتغلوا بفتنة الأمة، وتمردوا بالسعي في الشر، ولم ينتهوا عما هم عليه من الإرجاف، وإثارة الفتنة والهلع. ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ ﴾ فهي سنة وطريقة الله تعالى ومنهجه في الأمم السابقة، بأن يؤسروا ويُقتلوا أينما كانوا ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا ﴾ ولن تجد أيها النبي قدرة لأحد على تغيير سنة الله تعالى وتبديلها، فهي نافذة في كل من كان هذا مسلكه. فقد اقتضت سنة الله تعالى التنكيل بالفجار والمرجفون والمخادعون في الأمم السابقة، وكذلك الحال في الحاضر وإلى أن تنتهي الدنيا. فلن تتغير سنة الله تعالى، فهي ثابته ومستمرة حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. مما يفيد طمأنة المؤمنين، وتحذير الفسقة الفاسدين من غيهم وشرهم في كل زمان ومكان. وفي هذا تربية الأمة على الثبات، وعدم الخوف من المرجفين، وأن الله تعالى لهم بالمرصاد.

﴿ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٦٥﴾ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ ﴾

لما كثر سؤال الناس عن الساعة التي يذكرها ويَعِدُهم بها الرسول صلى الله عليه وسلم بوقوعها، تحذيراً وإعلاماً وبياناً، فكان سؤال بعضهم تعنتاً وإساءة، فيخبر الله تعالى بأنها من علم الغيب الذي استأثر به لنفسه عَزَّ في علاه ﴿ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ تعالج هذه الآية الكريمة سؤال من يسأل عن حقيقة الساعة، ومن يسأل استهزاء وتكذيبا، ومن يسأل تعنتاً وإبطالاً. وقد عمم تبارك وتعالى السائلين بلفظ ﴿ ٱلنَّاسُ ﴾ ليفيد تنوعهم وكثرتهم، فالمؤمنون يسألون صدقاً وإيماناً بها، بقصد طلب المعرفة. ويسأل غيرهم تكذيباً واستهزاء، على اعتبار أنه لا حياة غير حياة الدنيا، فورد التعميم ﴿ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ ليستوعب السائلين جميعاً، والإعلام والتقرير بها لكل من سأل.

فيخاطب الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالجواب، الذي استهله ببيان سببه وهو ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ يسألك الناس أيها النبي عن الساعة التي هي يوم القيامة، فأجبهم بقولك لهم ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ إن علمها عند الله تعالى، فليس لي علم بها. فهو من الغيب المخصوص به لله عَزَّ وجل. إذ حصر علمها سبحانه وتعالى عليه جَلَّ جلاله، فلا يعلمها غيره. بل ورد البيان بقصر علمها له سبحانه وتعالى بأداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ التي انحصر العلم بها لله عَزَّ وجل فقط.

ثم يُهَوِّلُ ويحذر سبحانه وتعالى من هيئة وحال وقوعها فجأة، وذلك بإثارة السؤال عن شأن عدم العلم بها، الذي ربما إيقاعها يكون قريباً، فإنه لا يعلمه إلا علام الغيوب، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ وما يدريك وما يعلمك ﴿ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ فقد يكون حدوثها في وقت وزمن قريب. بما يفيد: إذا كانت محجوبة عنك أيها النبي صلى الله عليه وسلم وصاحب المنزلة الرفيعة، فكيف بغيره من الناس. بما يفيد أنه لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، حيث استأثر عَزَّ وجل بعلمها، وكذلك لإفادة التهويل والتعظيم لشأنها، وتحذير الناس من وقوعها، وأن عليهم أن ينشغلوا بما ينفعهم في الآخرة، قبل وقوع الساعة، فحينها لا ينفع أهل الكذب واللاهين الإيمان بها حين وقوعها، ولا يمكنهم استدراك ما فاتهم من الإيمان والطاعة. فيكون قد قُضي الأمر.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بحال الكافرين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ إن الله عَزَّ وجل طرد وأبعد الكافرين عن رحمته، وأعد وجهز لهم ناراً شديدة خالدين وماكثين فيها أبداً. فيتوعد الله تعالى الكافرين بأمرين: الأول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أي: طَرَدَهم وأبعدَهم عن رحمته، وبالتالي لا ينالهم إلا الخزي والسوء، فقطع الأمل من الخير عنهم البتة. والأمر الثاني: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أي: ناراً شديدة الاشتعال، وأن صفتهم وحالهم مع هذه النار أنهم ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أي: ثابتين، وقابعين فيها من غير نهاية ولا انقطاع، فهو عذاب أبدي سرمدي ﴿ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ ولا يجدون من يتولاهم، ويحفظهم من عذابها، ويدافع عنهم ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ وليس لهم ناصر ينصرهم ويخلصهم ويخرجهم منها.

ثم يصف الله تعالى حالهم في العذاب ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ أي: حينها تُقَلَّب وجوههم بالتحريك، تارة على جهة، وتارة على جهة أخرى، ووقتها، وحينئذ ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ فيتمنون حين ينقطع الرجاء، ولا ينفعهم التمني لو أنهم أطاعوا الله تعالى، وأطاعوا رسولهم. وهذا نوع من العذاب النفسي الذي يتزامن مع العذاب الحسي، ليكون العذاب فيهم من كل وجه وجهة. فهي أمنية قد فات وقتها، ولا يمكن تحصيلها وتداركها. مما يبين للناس الحال التي يكون عليها من كفر، مما يتأكد به إقامة الحجة عليهم من كل وجه. وفي هذا تحذير وترهيب لهم من عقوبة الكفر. وهذا من رحمة الله تعالى أن أوضح وبين لعباده الحقائق بكل وضوح.

وفي هذا الوقت من العذاب، يخبر الله تعالى بأنهم يعتذرون عن كفرهم بسبب طاعتهم لكبرائهم ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ فيقولون يا ربنا إن سبب كفرنا هو طاعتنا ﴿سَادَتَنَا ﴾ أي: الأشراف والكبراء وأهل النفوذ فيهم ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ من القادة والرؤساء الذين هم دون السادة، ممن يأتمرون وينفذون مطالب السادة ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ فأخرجونا وأزالونا عن حجج الحق، والمسلك والطريق الصحيح، الذي يؤدي للسلامة وإلى الهدى، الذي هو مسلك وطريق الحق والإيمان بك، والإخلاص لك، والإقرار بوحدانيتك، وطاعة رسولك الذي أُرسل إلينا.

ثم يطلبون من الله تعالى أن يضاعف لسادتهم وكبرائهم العذاب ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ فإنه بسبب ما أوقعونا فيه من الضلال ضاعف لهم العذاب ضعفين يا ربنا ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ واخزهم خزياً كبيراً، بطردهم من رحمتك طرداً بعيداً لا يتحصلون منه على شيء من رحمتك، كتخفيف العذاب عنهم، بما يفيد: أن تغمسهم في أشد وأنكأ العذاب. مما يدل على شدة الحنق عليهم في الآخرة، بعكس حالهم في الدنيا، فإنهم يتلمسون رضاهم حتى ولو كان بسخط الله تعالى عليهم. مما يفيد الحذر من التقليد والمحاباة للكبراء في معاصيهم، بل يجب الأخذ بالجادة والتمسك بها، وبأن لا يغتر الإنسان بغيره من أهل الغواية والشر. فهذا بيان من الله تعالى للحال الكائنة للكافرين كما ستكون، وكأنهم يرونها ويعيشونها.

ومن دقائق البيان أن الله تعالى ساق الوصف وكأن الإنسان ينظر لحالهم وتصرفاتهم أمامه. إذ ورد تقليب وجوههم في النار بصيغة المضارع الموضح والمبين للحال الذي يستمرون فيه ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ ﴾ كما ورد قولهم بنفس الحال والهيئة ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ بالرغم من أنه

لم يحل بهم ذلك بعد، ولكن أوقعه الله تعالى بصيغة التحقق له، فورد السياق باعتبار الجزم بأنه سيكون وفق ما أخبر به سبحانه وتعالى. كما ورد قولهم لربهم سبحانه وتعالى بصيغة الماضي ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ ﴾ لإفادة أنهم قالوا ذلك القول، وانتهوا منه، فكان في عداد الماضي والمنتهي، والذي قد فُرِغ منه ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ فتحقق منهم الطاعة لسادتهم وكبرائهم بصيغة الماضي المنتهي فعله ﴿ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ وتحقق فيهم فعل الضلال ﴿ فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ وانقطاعهم عن سبيل الهدى والرشاد. فكان أسلوباً دقيقاً في تصوير الحال، وكأن الْمُخَاطَبين يشاهدون المشهد كما هو. وهذا من قوة دقائق البيان. فسبحان الله العظيم في كل وقت وحين وشأن. فإعجازه ظاهر حتى في بيانه عَزَّ وجل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴿٧٣﴾ ﴾

يوجه الله سبحانه وتعالى نداءين متعاقبين للمؤمنين: الأول: نهي المؤمنين من التشبه ببعض قوم موسى في أذيتهم له عليه السلام، والثاني: الأمر بالتقوى. فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ نداء للمؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بما يفيد: انتبهوا وارعوا سمعكم لأمر مهم، كما ابتدأهم سبحانه وتعالى بالمدح والثناء العظيم، إذ ورد النداء بصفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يا من صدقتم بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَا تَكُونُواْ ﴾ لا تُمَاثِلُوا في أفعالكم وأقوالكم ﴿ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ ﴾ فلا تكونوا مِثل الذين آذوا موسى عليه السلام، باتهامه في جسده بعلة مبناها الظن والوهم، ذلك أنه لشدة حيائه يتستر عنهم، فظنوا أن به عاهة، كما ورد في صحيح

البخاري رحمه الله تعالى[١] وقد ذكر القرآن الكريم أنواعاً من إيذائهم لرسولهم، كما ورد في سورة الأعراف ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ ﴾ قولهم كما ورد في سورة البقرة ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥ ﴾ فأذاهم متنوع، ولكن لعل الأذى المقصود به هنا هو ما كان متعلق بجسده عليه الصلاة والسلام، والذي تحصل به وفيه التبرئة مما اتهموه به ﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ﴾ فأظهر الله تعالى براءته مما قالوا من السوء ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ وقد كانت له منزلة عظيمة، وجاهاً ووجاهة كريمة عند ربه سبحانه وتعالى، فالجاه، هو حُسن القبول للشخص الوجيه من الناس، وبالتالي قبول مطالبه ورغباته، لمكانته ومنزلته. فمن وجاهته أنه سأل الله تعالى أن يكون أخوه هارون وزيراً له، فأعطاه عَزَّ وجل ما سأل، بل وجعل هارون نبياً رسولاً مع موسى عليهما الصلاة والسلام.

فلا تكونوا أيها المؤمنون مثل أولئك في الأذى، فتقولون أو تفعلون ما يكرهه رسولكم منكم، مما يفيد: أنه يجب عليكم أن توقروه، ولا تقولوا ولا تفعلوا إلا ما يحبه صلى الله عليه وسلم. مما يدل على منزلته ورفعته ومكانته صلى الله عليه وسلم. كما يفيد ذلك تعليم الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم بما قد يفوت عليهم من توقيره صلى الله عليه وسلم. مما يفيد: احرصوا حرصاً شديداً على أن لا تتشبهوا بغيركم في خصلة من خصال الأذى. ومن دقائق البيان أن الله تعالى لم يحدد نوعاً من الأذى، بل جعله عاماً، ليشمل كل أذى صدر منهم، وأن الله تعالى بَرَّأ رسوله موسى عليه الصلاة والسلام من كل تهمة كانت منهم له عليه السلام. مما يفيد أهمية التأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم، وتعظيم شأنه بكل لفظ وفعل.

وفي نهي المؤمنين عن مماثلة من آذوا موسى عليه السلام ما يفيد التحذير والتنبيه والتوقي، من أن يحصل منكم مثل ذلك. فاحذروا من أن تسلكوا مع رسولكم مسلك الطوائف من بني إسرائيل التي آذت موسى عليه السلام. ومن الفوائد العامة أن المرء قد يكون له عند الله تعالى منزلة عظيمة، في حين يرميه غيره ويتهمه وينعته بالسوء، وبما لا يليق، كما يفيد ذلك أن الله تعالى مع أوليائه بالنصر والتمكين، فينصر المظلومين على الظالمين، ويخذل الظالمين ويُبطل افتراءهم، ويكشف براءة المظلوم. مما يبين أهمية الحذر من نعت الناس بالباطل، وخاصة الأنبياء والمرسلين والصالحين، وعموم المؤمنين. فإن للناس حرمة عند الله سبحانه وتعالى. مما يبين ويفيد أن هذا الدين هو دين الأخلاق، ودين التآلف، ودين المجتمع المتآلف المتكاتف.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٣٤٠٤)

ثم بعد تنبيه وتحذير المؤمنين من التشبه بمن أذى موسى عليه السلام من قومه، يزداد التأكيد للمؤمنين مع زيادة التعميم بالحذر في كل أقوالهم وأفعالهم، مع إرشادهم ودلالتهم على قاعدة عظيمة في التعامل، وهي تقوى الله عَزَّ وجل، والقول السديد، فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ افتتح الله تعالى توجيهه الكريم بنداء المؤمنين بأرفع الألقاب وأجلها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بما يفيد التزكية لهم بالإيمان من ربهم عَزَّ وجل، وهي منحة ونعمة عظيمة، ومنزلة كريمة. فإذا كان الله سبحانه وتعالى يفتتح خطابه وتوجيه للمؤمنين بأحسن وأعظم الألقاب، وهو ربهم ومالكهم، وهم عبيده، وتحت سلطانه عَزَّ وجل. فإن مما يفيد بالقياس عليه أهمية افتتاح الكلام في مخاطبة الناس بأحسن الكلام وأجله وأرفعه، فإنه أدعى للاستماع والقبول، والتفاعل الجميل، والبعد عن الجفاء في الخطاب.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى المؤمنين بأمرين عظيمين مهمين: الأول: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ عليكم بلزوم التقوى، فالتزموا بتقوى الله تعالى فيما تستقبلونه من أمركم، لِمَا اشتملت عليه التقوى من الخشية والخوف والرجاء، والعمل بطاعته عَزَّ وجل، واجتناب ما نهى عنه وزجر. فإن التقوى تمنع التعدي، وتدفع المؤمن إلى التحوط بالتزام الحدود، وضبط الفكر والسلوك، وملازمة الوفاء في كل شيء، وأبرزها الوفاء مع الله تعالى، ومع رسوله صلى الله عليه وسلم، وكذلك الوفاء مع أهل العقود والعهود والمواثيق، مما يفيد أن التقوى تحقق الاستقامة في كل شأن، لما فيها من دعائم الرغبة في ثواب الله تعالى وتوفيقه، والخوف من أن يحصل التقصير، أو إصابة معصية وجرماً يُغضِب الله تعالى ولا يُرضيه. وقد ارتبطت التقوى بألوهيته سبحانه وتعالى، وباسمه الأعظم ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فهو ربكم، فإن لاسم الله تعالى ﴿ ٱللَّهَ ﴾ هيبة ومخافة وعظمة وجلالاً، خاصة وقد اقترن بلزوم التقوى، وتقرير ألوهيته، الذي يجب أن تعبدوه وتتقوه في جميع شؤنكم بمراقبته، واتباع شرعه عَزَّ وجل.

والأمر الثاني: ﴿ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أي: صائباً للحق، وموافقاً له، فالزموا أيها المؤمنون قول الحق والصواب، الذي تتجنبون به الباطل وتحققون به الحق، الذي يُراد به وجه الله تعالى، والمتباعد عن الرياء والنفاق ورذائل الأخلاق، وكذلك هو القول الذي يُصلح ولا يفسد، وهو القول المخالف لقول أهل الأذى والنفاق. وفي تسميته بالقول بالسديد ﴿ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ ما يفيد موافقته للحق الذي عُضِد وسُدِّدَ بالصواب والحق من كل وجه، وبالتالي يسد به الباطل، ليصيب به الحق والمراد إصابة صحيحة في وجهته ومراده ونيته، بما يطعن به الباطل وأسبابه من كل جهة. وورد البيان له بسياق العموم ﴿ وَقُولُواْ قَوْلًا ﴾ ليستوفي جميع ما يأتي من أقوال المؤمن، وما قد يترتب على القول من الأفعال. وقد تقدم الأمر بالتقوى على القول، لأن التقوى أساس في لزوم القول السديد والعمل بمقتضاه. فهي مطلب وركيزة للقول السديد، فالذي خلا قلبه من التقوى، لا يمنعه مانع من القول الباطل، المضاد للقول السديد.

وفي هذا الأمر الكريم من الله العزيز الحكيم ما يُوجب العمل به، لأنه ورد بصيغة الأمر الذي يفيد وجوب العمل به. مما يربي في المؤمن الصدق، وقول الحق وتحريه والقبض عليه، وإن خالف هواه، وخالف نواياه. وبالتالي ينعكس عليه في أدائه، ومهنته، ومع مصالح الناس، وفي بيعه، وفي شرائه، وفي أسرته، ومع مرؤوسيه ورؤسائه، وفي عموم تعامله، مما يجعله محل الثقة. بل ويثري المجتمع ببناء العلاقات والأهداف على أساس القول السديد، الذي هو الأنفع والأصلح. كما يرفع مستوى التناصح، والأمانة، والعدل، وإقامة الحق، وكسر الباطل، ومغالبة هو النفس، والانتصار على شهواتها وشبهاتها، وذلك بالمجاهدة التي يتحقق بها القول السديد، والفعل السديد. مما يبين أن منهج الإسلام قائم على أعظم مكارم الأخلاق، وأن دين الله تعالى هو الدين الحق في كل شأن وأمر، وأن سعادة الناس بتطبيق هذا الدين القويم.

ثم يخبر الله تعالى بمحصلة وفائدة هذا الالتزام بالتقوى والقول السديد، فيقول عَزَّ وجل ﴿ **يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ فإذا التزمتم بما أمركم الله تعالى به من التقوى والقول السديد، والطاعة والامتثال لربكم جَلَّ جلاله، فإنه عَزَّ وجل يتولاكم بالصلاح والهداية والتوفيق. **فأولاً:** أنه ﴿ **يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ** ﴾ فيجعل أعمالكم صالحة بتسديده لكم، وإعانتكم وتوفيقكم، وهدايتكم، فيبعد أعمالكم عن الفساد، وما تخافون منه، وتهابونه، لأنكم جاهدتم أنفسكم، والتزمتم التقوى والقول السديد، فألزمتم أنفسكم به، ولم تتأثروا بالمغريات والشهوات والحسبان الذي يتعارض مع التقوى والقول السديد، فظفرتم بمعية الله تعالى لكم، وتوفيقه وتسديده، وإبعاد عنكم ما تخافونه.

وثانياً: أنه سبحانه وتعالى ﴿ **وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ وبالتزامكم التقوى، والقول السديد يغفر ويمحو عنكم ذنوبكم وخطاياكم، ويسترها عليكم. لأن ﴿ **وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ فمن يحافظ على طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ **فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ فقد نال وظفر بالخير ظفراً عظيماً في الدنيا والآخرة. بل ورد الفوز بصيغة التحقق المؤكد، بحرف التحقيق والتأكيد ﴿ **فَقَدْ** ﴾ وكذلك بالمفعول المطلق الذي يفيد المبالغة ﴿ **فَازَ فَوْزًا** ﴾ وثالث ذلك تعظيم الفوز ﴿ **فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ ليس فوزاً سهلاً، ولا قليلاً، بل فوزاً متعاظماً في منزلته، ومقداره وقدره، ورفعته، وكثرته، بما لا يُوصَف. مما يحفز المؤمن ويعلمه أن توفيق الله تعالى وكريم عطائه لمن اتقاه وأطاعه، فإن من كثرتها وقوتها وعظمتها لا يستطيع أحد أن يقيم ويقدر عظمة توفيق الله تعالى وتسديده للمطيعين المتقين.

وبعد بيان الله تعالى ما لأهل الطاعة من الرحمة والمغفرة والفوز العظيم، وما سبق ذلك من بيان ما لأهل المعصية من العذاب، يخبر الله سبحانه وتعالى عن شأن أمانة التكاليف الشرعية، التي ائتمن عليها

المكلفون، وعظيم حملها، وأداء حقها، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ يخبر الله تعالى عباده بما كان من أول الخلق، بأنه عَزَّ وجل عرض التكاليف الشرعية التي كلف الله تعالى بها عباده، وسماها بالأمانة ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ فإن الله تعالى قد عرض التكاليف الشرعية التي هي الأمانة على خلقه.

وتفيد دلالات كلمة ﴿ ٱلْأَمَانَةَ ﴾ أن من أخذها فهو مؤتمن عليها، يُثاب على فعلها، ويعاقب على تضييعها. وهي التكاليف الشرعية، من أداء الطاعات، وترك المنهيات والابتعاد عنها، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، والقيام بآداب وأخلاق وشعائر وسنن هذا الدين الحنيف العظيم، وفي تسميتها بالأمانة، لأن العباد مؤتمنون على أدائها من غير إخلال بها، وهي شاملة لجميع معاني الأمانة، لأنها وردت عامة. قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: عُني بالأمانة في هذا الموضع جميع معاني الأمانات[١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور[٢] وجميع أنواع الأمانات هي من الدين، ومنها الأمانة مع الناس.

فإنه سبحانه وتعالى قد عرضها على المخلوقات العظيمة: السماوات والأرض والجبال، وكان عرض تخيير لا إلزام ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ على أنها إن أحسنت أثابها الله تعالى، وإن أضاعتها عاقبها الله عَزَّ وجل، ولكن تلك المخلوقات المذكورة امتنعن ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾ فامتنعن عن حملها، خوفاً من أن لا يؤدين حقها كما أمر وفرض سبحانه وتعالى، وأن امتناعها ليس عصياناً لله عَزَّ وجل، لأن العرض كان تخييراً لهن. ﴿ وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ والإشفاق هو الخوف من تبعات عدم القيام بها كما يجب، رغبة من أن لا يُكلفون إلا بما يستطيعون ويقدرون على الوفاء به من التكاليف.

وقد قبل بحملها وتكاليفها الإنسان ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ أي جنس الإنسان. وقيل آدم عليه السلام كما ذكر الطبري، وغيره من المفسرين[٣] ووافق الإنسان وقَبِل أن يحمل هذه الأمانة العظيمة من التكاليف الشرعية على ضعفه ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ فقد كان الإنسان شديد الظلم والجهل لنفسه. فهو ظالم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٢٠٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٦٢)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/١٩٦-٢٠٥) وابن الجوزي، زاد المسير (٦/٢١٩)

لنفسه، وجاهل بحظه والأحسن له، وبهذا الظلم والجهل الكائن من نفسه، أصبح هناك المؤمن الحامل لهذه الأمانة، الذي يريد ما يترتب على هذا الحمل من الأجر والحظ العظيم في الآخرة، وهناك الكافر الذي رفضها وكذب بها فظلم نفسه، وهناك المنافق الذي أظهر حملها، وأبطن نكرانها والكفر بها، فظلم نفسه، فأصبح الكافرون والمنافقون ظالمين لأنفسهم، جاهلون لحظهم، فكان جهلهم بها هو جهل استخفاف بما عرفوا من الحق.

مما يفيد ويبين أن تكاليف هذا الدين أمانة عند كل أحد من الناس، وأنه يجب عليه أداء هذه الأمانة، وأن يستشعر مراقبة الله تعالى له في جميع حركاته وتقلباته، وأنه عَزَّ وجل يحفظ عليه كل ما بدر منه، وأنه سيثاب على الطاعة، ويعاقب على المعصية. فإذا أدرك المؤمن هذا الأمر جعل من نفسه مطيعاً لربه، ومجتهداً في أداء الأمانة، التي ثوابها وعاقبتها جنات النعيم، خالدين فيها أبدا.

ثم بعد أن أخبر سبحانه وتعالى عن حمل وتحمل الإنسان لأمانة التكاليف الشرعية، يختتم الله سبحانه وتعالى سورة الأحزاب ببيان أصناف الناس في حمل هذه الأمانة، وعن العاقبة التي ستكون لكل صنف وفئة من تلك الأصناف، فقال سبحانه وتعالى ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فبهذه الأمانة التي تَحَمَّلَها الإنسان، وما ترتب لمن أقامها من الأجر والثواب العظيم، ولمن ضيعها من الإثم والعذاب الأليم، فإنه يظهر بتكاليف هذه الأمانة من يستحق العقاب، ويظهر بها من يستحق الثواب، فيعذب العاصي، ويثيب المطيع. فبدأ سبحانه وتعالى **بالفئة أولى:** وهم المنافقون ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ ﴾ ليعذب الله تبارك وتعالى أولئك المتلاعبين بالإيمان، الذين يُظهرون للمؤمنين أنهم مؤمنون، ويُبطنون الكفر والتكذيب، ليحققوا مآربهم ونواياهم الخبيثة.

ثم ذكر سبحانه وتعالى **الفئة الثانية:** من الذين يتحقق فيهم العذاب ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ الذين زعموا أن لله تعالى شركاء في ملكه، وألوهيته وربوبيته، فَعَبَدُوا مع الله تعالى معبودات قد اخترعوها بزعمهم الباطل الفاسد. وإذا كان هذا جزاء الصنفين من المنافقين والمشركين، الذين اغتروا بما هم فيه من أصناف الكفر، فإنه يدخل معهم من باب أولى جميع أهل الكفر من الملحدين وغيرهم.

وحرف اللام في قوله تعالى ﴿ لِّيُعَذِّبَ ﴾ هي لام التعليل، فالعذاب نتيجة التفريط في حمل الأمانة، فبحمل الأمانة يظهر إيمان المطيع، ونفاق المنافقين، وشرك المشركين، فيكون عذابهم بناء على تضييعهم للأمانة التي تَحَمَّلَها الإنسان. وبالتالي يكون عذابهم بسبب خيانتهم للأمانة، وعدم الوفاء بها، فكذبوا المرسلين، ونقضوا المواثيق. ومن دقائق البيان، وقوة الوعيد والتحذير للمنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات أن الله سبحانه

وتعالى أظهر وأبرز ذِكرهم بالتفنيد ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ وذلك بإفراد الرجال، وإفراد النساء من كل فئة. ولم يجمعها في كلمة المنافقين وكلمة المشركين، بما يفيد: إظهار قوة التحذير، والمساواة في الحكم. فجميعهم داخلون في العذاب. وكذلك أفرد بالتعيين والتفنيد المؤمنين والمؤمنات ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فأظهر وأبرز ذِكر المؤمنين والمؤمنات بالتفنيد، ولم يجمعها في كلمة المؤمنين فقط، لإظهار قوة التخصيص والبشارة بالتوبة والمغفرة، وبالمساواة في الحكم في العطاء والإكرام. ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فمن آمن وأطاع فله المغفرة والتوبة من الله سبحانه وتعالى، سواء كان رجلاً أو امرأة.

والصنف **الثالث:** هم المؤمنون والمؤمنات، فقال الله تعالى فيهم ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فإن الله تعالى يقابل تقصير المؤمنين والمؤمنات بالتوبة والمغفرة، فيسامحهم، وبالتالي يكرمهم على حملهم الأمانة بالمثوبة العظيمة، ثم يبشرهم بمغفرته ورحمته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وهذه بشارة عظيمة للمؤمنين، فإن ربكم متصف بمغفرة الذنوب وسترها، ومحوها، وأنه رحيم بعباده، بما شرع لهم، وبمغفرته للذنوب، فيغفر للمخطئ، ويرحمه، ويتجاوز عنه. لأنه سبحانه وتعالى متصف بالمغفرة والرحمة، فيغفر الذنوب، ويرحم العباد، ومن جملة ذلك مغفرته لمن أخطأ وقصر وتاب، واستقام. فإن رحمة الله تعالى واسعة لمن أطاعه. وفي هذا دعوة للتوبة والرجوع إليه سبحانه وتعالى بالدخول في الإسلام، وكذلك تحفيز وتنشيط للاستغفار مما يقع من الخطأ والنسيان، بما يبين أن الله سبحانه وتعالى قد أراد بعباده الخير، وأنه ما حملهم الأمانة، وما أرسل الرسل ولا أنزل الكتب إلا رحمة بالعباد، ليتبعوا شرعه وفق ما شرع، فيحملوا الأمانة كما أراد عَزَّ وجل، فتتصحح مفاهيمهم وتستقيم أمورهم.

وقد ورد بيان المغفرة والرحمة بأسلوب الإثبات الأزلي، فحرف **(إن)** من قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ﴾ هو حرف توكيد، والفعل ﴿كَانَ﴾ فعل ماضي، مفاده أن المغفرة والرحمة صفة ثابتة لله تعالى، وليست حادثة. بل إنها صفة من صفاته الكريمة. فالحمد لله رب العالمين على مغفرته ورحمته وفضله وهدايته.

تم بحمد الله إتمام سورة الأحزاب، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد.